من بلاغة التكرار

فى

البيان النبوى

د/ إبراهيم حسن أحمد

أستاذ مساعد البلاغة والنقد فى الكلية

المقدمة

الحمد لله الذى أنعم على عباده بنعمة البيان، وشَرّف لغة العرب فجعلها وعاء للقــرآن، والصلاة والسلام على "أفصح العرب لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وأعذبهم نطقًا، وأَســدِّهم لفظًــا، وأبينهم لهجةً، وأقومهم حُجّةً، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلــى طريــق الصــواب"(١) سيدنا محمد الهادى الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد

فقد تنبه العلماء قديما وحديثا لما فى بيان النبوة من أسرار بلاغية حرية بــأن تكــون محط اهتمام الباحثين، وأن يُبذل فيها الجهد، وتُستنهض لها الهمم، فها هو ذا الجــاحظ يقــول فى كلامه – صلى الله عليه وسلم – : "هو الكلام الذى قلّ عدد حروفه، وكثر عــدد معانيــه، وجلّ عن الصنعة، ونُزّه عن التكلف، ... استعمل المبسوط فى موضع البسط، والمقصور فــى موضع القصر، وهجر الغريب الوحشىّ، ورغب عن الهجين السوقى، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة"(٢).

ويقول الرافعى فى كلامه – صلى الله عليه وسلم –: "هو كلام كلما زدته فكرًا زادك معنــى، وتفسيره قريب كالروح فى جسدها البشرى، ولكنه بعيد كالروح فى سِرِّها الإلهــى"(٣)، ويقــول – أيضا – : "ألفاظ النبوة يعمرها قلب يتصل بجلال خالقه، ويثقلها لسان نزل عليه القــرآن بحقائقــه ...، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء"(٤)، ويقــول الزيات: "إن بلاغة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من صنع الله، وما كان من صنع الله تضــيق موازين الإنسان عن وزنه، وتقصر مقاييسه عن مقياسه، فــنحن لا نــدرك كنهــه وإنمــا نــدرك أثره....، ذلك أن البلاغة النبوية هى المثل الأعلى للبلاغة العربية، وإذا كان كلام الله كتاب البيــان المعجز؛ فإن كلام الرسول – صلى الله عليه وسلم – سنة هذا البيــان، وإذا كــان الــبلاغ صــفة

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير، ت طاهر أحمد الزاوى، ط أولى، عيســى الحلبــى، القاهرة، ١٣٨٣– ١٩٦٣م، جـــ ١، ص٣.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، ت: الأستاذ/ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، جـــ٢، ص١٧.

(٣) وحى القلم للرافعى، دار الكتاب العربى، بيروت، جـــ٣، ص٩.

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى، دار الفكر العربى، القاهرة ، ص٢٧٩.

كُلِّ رسول، فإن البلاغة صفة محمد – صلى الله عليه وسلم – وحده"[١].

ومن هذا المنطلق أردت أن أسهم بجهد فى خدمة البلاغة النبوية، فوقع اختيارى على نوع من أنواع الإطناب تميز به البيان النبوى ألا وهو (التكرار)، وقد جاء موضوع البحث تحت هذا العنوان (من بلاغة التكرار فى البيان النبوى).

وسبب اختيارى لموضوع يتعلق بالإطناب يرجع إلى أن الإطناب بجميع أنواعه عظيم الفوائد جم المنافع، كثير الأسرار، ولذا يقول عنه الإمام العلوى: "الإطناب وادٍ من أودية البلاغة"[٢]، وها هو ذا أبو هلال العسكرى ينسب إلى أصحاب الإطناب قولهم: "المنطق هو بيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفا لا يقع إلا بعد الإقناع، وأفضل الكلام أبْيَنُه، وأبينه أشده إحاطة بالمعانى، ولا يُحاط بالمعنى إحاطة تامة إلا بالاستقصاء، والإيجاز للخواص، والإطناب مشترك فيه الخاصة والعامة، والغبى والفطن، والريّض والمرتاض"[٣].

فأبو هلال فى هذا النص يَرُدّ إلى الإطناب الكثيرَ من الفضل، حيث يجعله طريقًا إلى البيان الذى يشبع النفس بالمعانى، ويقنعها بها[٤].

ولعل هذا ما دفعنى إلى اختيار نوع من أنواع الإطناب؛ ليكون مادة لهذا البحث، وقد وقع اختيارى على التكرار لأسباب أذكرها فيما يأتى:

أولا: التكرار كثير الورود فى البيان النبوى؛ لأن المواقف التى تستدعيه تمتلئ بها الحياة، والدواعى التى تدفع إليه قائمة فى فطرة النفس.

ثانيا: التكرار إنما يأتى فى مقامات تقتضى زيادة تقرير المعانى، وتتطلب مزيدًا من الحسم، وقطع الأطماع، وأكثرها يأتى فى مواطن التهديد والوعيد، وهى مواطن يكون فيها التكرار بمثابة

---

(١) وحى الرسالة للأستاذ/ أحمد حسن الزيات، ط/ دار الثقافة، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤٠٥ه ١٩٨٠م، جـ٢، ص٢٢٩.

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوى، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ٢، ص٢٢٩ .

(٣) الصناعتين لأبى هلال العسكرى، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤ه – ١٩٨٤م، ص٢٠٩.

(٤) ينظر: الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية للدكتور/ محمود شاكر القطان، ط أولى، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص١٩.

تتابع قرع الأجراس، وزيادة الضغط على مواطن الإحساس؛ للتنبيه على ما يحدق بالمخاطبين من أخطار، فالتكرار يأتى لما أهم من الأمور بصرف العناية إليه؛ ليثبت ويتقرر فى النفس.

ثالثا: التكرار وسيلة بيانية لها مكانتها بين وسائل البيان ولها قيمتها البلاغية، وهذا ما دفع ابن الأثير لأن يقول فيه: "واعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان"(١)

لهذه الأسباب وغيرها آثرت أن يكون بحثى منصبا على ظاهرة التكرار، وآثرت أن تكون دراستى للتكرار مرتبطة بالبيان النبوى؛ رغبة منى فى بيان دقائق التكرار فى البيان النبوى، وكشف الحجب عن لطائفه وأسراره، وبيان المقامات التى تقتضيه والأحوال التى تستدعيه، وإبراز ما يُحدِثه فى نسق التراكيب من إيحاءات، وما يشير إليه من أغراض.

هذا: وقد استخرت الله – تعالى – واستشرت أهل الذكر وأساتذتى الأجلاء فأشاروا علىّ بأن تكون دراستى لظاهرة التكرار فى البيان النبوى فى ضوء ما رواه أصحاب الكتب الستة الصحيحة، البخارى(٢)، ومسلم(٣)، وابن ماجة(٤)،

---

(١) المثل السائر لابن الأثير، ت/ أحمد الحوفى وبدوى طبانة، نهضة مصر، ط/ أولى، ١٣٣٧ه ١٩٥٩م، جـ٣، ص٣.

(٢) هو شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفى البخارى، الإمام فى علم الحديث، صاحب الجامع الصحيح، المتفرد فى علم الرواية والدراية، ولد يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شوال عام ١٩٤ه ، ومات ليلة عيد الفطر عام ٢٥٦ه رحمه الله، ينظر: تهذيب الأسماء للنووى، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ١، ص٦٧،ووفيات الأعيان لابن خلكان، ت/ إحسان عباس، ط/ أولى، دار صادر، بيروت، ١٩٧١م، جـ٤، ص١٨٨-١٩٠.

(٣) هو حجة الإسلام الإمام الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، أحد الأئمة الحفاظ، ومن أعلام المحدثين، ولد سنة ٢٠٤ه ، وتوفى سنة ٢٦١ه ، ينظر: تذكرة الحفاظ، لشمس الدين الذهبى، ط دار الفكر العربى، بدون تاريخ، جـ٢، ص٥٨٨ – ٥٩٠، وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب لعبد الحى بن أحمد الحنبلى، ت/ عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٦ه، جـ٢، ص١٤٤.

(٤) هو الحافظ الكبير المفسر: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى الربعى، أبو عبد الله، أحد الأئمة فى علم الحديث، ومصنف كتاب سنن ابن ماجة، وهو أحد الكتب الستة المعتمدة، ولد سنة ٢٠٧هـ، ومات فى رمضان سنة ٢٧٣ه ، ينظر: النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، ط/ وزارة الثقافة والإرشاد القومى، بدون تاريخ، جـ٣، ص٧٣، والأعلام لزين الدين الزركلى، جـ٧، ص١٤٤، ط/ خامسة، دار العلم للملايين،٢٠٠٢م.

وأبو داود[١]، والترمذى[٢]، والنسائى[٣]؛ وذلك لما احتوت عليه روايات أصحاب هذه الكتب من تحرٍّ للأسانيد وتمحيص للرواة وضبط للمتن، واشتراطهم لصحة الحديث شروطا تملأ القلب رضًا وطُمأنينة[٤].

هذا: وقد اتبعت فى هذا البحث المنهج التحليلى الذوقى، ذلك المنهج الذى يقوم على دراسة الشاهد البلاغى فى الحديث النبوى دراسة متأنية تحاول إبراز بلاغته، ومدى ارتباطه بالسياق والمقام الوارد فيه، ثم تُعَرِّج الدراسة على خصائص النظم الأخرى داخل الحديث بصفته بناءً واحدًا متماسكًا يأخذ بعضُه بحجز بعض؛ ذلك أن عناصر الإبانة من مفردات وتراكيب، وتقديم وتأخير، وحذف وذكر، وإيثار لصيغة على أخرى، واستعارة، ومجاز، وكناية، وجناس، ونحو ذلك تتعاون جميعها، وتتآزر فى خدمة الغرض العام، وتتلاءم مع المقام وترتبط به ارتباطًا وثيقًا، هى – إذن – دراسة بلاغية ذوقية، يتعانق فيها الجمال الجزئى صياغة وبيانًا مع الجمال الكلى الذى يُحقق الغرض، ويُوفِّى بالمقام، ويُقْنع العقل، ويُمتع الوجدان.

هذا: وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتى فى أربعة مباحث مسبوقة بمقدمة وتمهيد، ومذيلة بخاتمة وفهرس وثبت بأهم المراجع والمصادر، وقد جاءت خطة الدراسة على النحو التالى:

---

(١) هو الإمام الثبت سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدى السجستانى، أحد حفاظ الحديث، وصاحب كتاب سنن أبى داود، ولد سنة٣٠٣ه ، وتوفى فى رجب سنة ٣٧٥ه ، ينظر: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٧٣، ووفيات الأعيان، لابن خلكان، جـ٢، ص٤٠٤.

(٢) هو الحافظ الكبير الحجة: أبو عيسى محمد الترمذى، من أئمة علماء الحديث وحفاظه، كان يضرب به المثل فى الحفظ، من تصانيفه: صحيح الترمذى، ولد سنة ٢٠٩ه ، ومات فى رجب سنة ٣٧٩هـ، ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، جـ٤، ص٢٧٨، والأعلام لزين الدين الزركلى، جـ٦، ص٣٢٢.

(٣) هو شيخ الإسلام الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على الخرسانى النسائى القاضى، أصله من نسا (بخراسان) له السنن الكبرى فى الحديث، ولد سنة ٢١٥هـ ، وتوفى بفلسطين يوم الاثنين ١٣ من صفر سنة٣٠٣هـ، ينظر: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص١٨٨هـ، والأعلام لزين الدين الزركلى، جـ١، ص١٧١ .

(٤) تنظر تلك الشروط فى مقدمة ابن الصلاح، ت د/ عائشة عبد الرحمن، ص ٣١٨ – ٣٥٧.

المقدمة: وتحدثت فيها عن أهمية الموضوع، والأسباب الداعية إلى اختياره، ومنهج الدراسة، وخطة البحث.

التمهيد: وقد جاء تحت عنوان (مفهوم التكرار وقيمته البلاغية)، ويتضمن: تحرير مصطلح التكرار فى اللغة، وتحرير مصطلح التكرار عند البلاغيين، والقيمة البلاغية للتكرار، وأغراض التكرار ومقاماته.

المبحث الأول: وهو بعنوان (بلاغة التكرار فى مقام الدعاء والاستغفار)، ويتضمن: التكرار والدعاء بالسُّقْيا، والتكرار والدعاء بالبركة للشام واليمن، والتكرار والدعاء بالمغفرة للمحلقين، والتكرار والدعاء بالهلاك على مجرمى قريش.

المبحث الثانى: وهو بعنوان (بلاغة التكرار فى مقام النهى والتحذير)، ويتضمن: التكرار والتحذير من أكبر الكبائر، والتكرار والنهى عن صيام الدهر، والتكرار والتحذير من التهاون فى إسباغ الوضوء، والتكرار ونهى الإمام عن الإطالة فى الصلاة، والتكرار والتحذير من عقوق الوالدين، والتكرار والتحذير من إيذاء الصديق – رضى الله عنه –، والتكرار والتحذير من الدنيا.

المبحث الثالث: وهو بعنوان (بلاغة التكرار فى مقام الشوق والحنين)، ويتضمن: التكرار والشوق إلى يوم عائشة – رضى الله عنها – والتكرار والشوق إلى إيمان أبى طالب، والتكرار والشوق إلى الرفيق الأعلى، والتكرار والشوق إلى توبة المذنبين.

المبحث الرابع: وهو بعنوان (بلاغة التكرار فى مقام التبرؤ من التقصير فى التبليغ)، ويتضمن: التكرار وتبليغ حكم الله فى الدماء والأموال والأعراض، والتكرار والتبليغ بقرب حلول الفتن والتحذير منها، والتكرار وتبليغ حكم الله – تعالى – فى هدايا العمال، والتكرار وتبليغ حكم الله – تعالى – فى ربا الجاهلية ودمائها.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

الفهرس: ويضم فهرسًا للمصادر والمراجع، وفهرسًا لموضوعات البحث.

وبعد: فنحمد الله – تعالى – ونشكره على ما يسّر وهدى، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، فله الحمد فى الأولى والآخرة، ونعوذ به من شرِّ الخطأ والزلل والقول عن رسوله بلا علم، ونستغفره عما وقع دون قصد مما لا ينفك عنه بشر من الخطأ والنسيان، والله من وراء القصد – موفق ومعين – هو حسبنا ونعم الوكيل.

د/ إبراهيم حسن أحمد

تمهيد

مفهوم التكرار وقيمته البلاغية

أولا: تحرير مصطلح التكرار فى اللغة.

الناظر فى معاجم اللغة يجد أن مادة (ك . ر. ر) واستعمالاتها – مجردة ومزيدة – تدور حول معنى: الرجوع – أو العود – والإعادة. يقول ابن منظور: الكَرُّ الرجوع. يُقَالُ: كَرَّه وكَرَّ بنفسه يتعدّى ولا يتعدّى، والكَرُّ: مصدر كَرَّ عليه يَكُرُّ كرًّا وكُرُورًا وتَكْرارًا: عَطَفَ، وكَرَّ عنه: رجع، وكَرّ على العدوّ يَكُرُّ، ورجل كَرَّار ومِكَرّ، وكذلك الفرس. وكَرَّرَ الشيء وكَرْكَره: أَعاده مرة بعد أُخرى، والكَرّةُ: المَرَّةُ، والجمع: الكَرَّات، ويقال: كَرَّرْتُ عليه الحديث وكَرْكَرْتُه: إِذا ردّدته عليه، وكَرْكَرْتُه عن كذا كَرْكَرةً: إِذا رَدَدْتُّه، والكَرُّ: الرجوع على الشيء ومنه التَّكْرارُ[١].

وفى الصحاح: كَرَّرْتُ الشيء تَكْرِيرًا وتَكْرارًا قال أَبو سعيد الضرير قلت لأبي عمرو: ما بين تِفْعالٍ وتَفْعال؟ فقال: تِفْعالٌ اسم وتَفْعالٌ بالفتح مصدر، وتَكَرْكَرَ الرجلُ في أَمره أَي: تردّد، والمُكَرّر من الحروف: الراء؛ وذلك لأَنك إِذا وقفت عليه رأَيت طرف اللسان يتغير بما فيه من التكرير ولذلك احْتُسِبَ في الإِمالة بحرفين[٢].

وجاء فى القاموس المحيط: كَرّ عليه كَرًّا وكُرُورًا وتَكْرَارًا: عَطَفَ، وعنه: رَجَعَ، فهو كَرَّارٌ ومِكَرٌّ، وكَرَّرَهُ تَكْرِيرًا وتَكْرَارًا، وكَرْكَرَهُ: أعاده مرة بعد أخرى[٣].

وفى ضوء كلام أهل اللغة نخلص إلى أن مادة (كرر) تدور حول معنى الرجوع والإعادة، وأن التَّكرير والتَّكرار بفتح التاء مصدران، وأن التِّكرار بكسر التاء اسم بمعنى الشيء المكرر.

---

(١) لسان العرب لابن منظور، ط/ دار المعارف، القاهرة، مادة (كرر).
(٢) الصحاح للجوهرى، ت/ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، لبنان، مادة: (كرر).
(٣) القاموس المحيط للفيروزابادى، مادة (كرر).

يقول الدكتور/ إبراهيم الخولى: "إن (التكرير) فى الكلام عمل المتكلم المنشئ، و(التَّكرار) هو أثر عمله الذى به يصبح الكلام مُكَرّرًا، والتِّكرار (بالكسر) اسما: كأنه اسم للكلام الذى حدث فيه التكرار، يطلق على ما حدث فيه تكرار من القول أو الكلام، مثلا: الإتيان بقوله – تعالى – : (فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)[١] فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة: تَكرير وتَكْرَار بفتح التاء، وهذه العبارة بعينها فى كل موضع من هذه المواضع (تِكْرَارٌ) بالكسر، ومجيء هذه الآية ونظائرها مُرَدّدة فى مواضعها من (القمر) و(الرحمن) و(المرسلات) هو (التَّكرار) بالفتح (مطاوع التكرير)، تلك وجهة نظر لضبط استخدام هذه الألفاظ (تكرير) و(تَكرار) و(تِكرار) نحسبها صوابا – إن شاء الله–

مهما يكن من أمر فكل من (تَكْرير) و(تَكْرَار) يصلح أن يكون مصطلحا على هذه الظاهرة الأسلوبية، وإذا كان لفظ (تكرير) أظهر فى وصف عمل المتكلم فإن لفظ (تكرار) يبدو أقرب إلى أن يكون عبارة عن صفة الكلام الذى وقع عليه (التكرير)

هذا: والمفسرون والبلاغيون والنقاد يستخدمون اللفظين: (التكرير) و(التكرار) دون تحرج أو تأثم من وضع أحدهما موضع الآخر، وقد آثرنا لفظ (التكرار) فى العنوان؛ لأنه أشيع وأخف جرْسا؛ ولأنه بصورتيه (مصدرًا بفتح التاء، واسمًا بكسرها) يلبى ما قصدناه من الإشارة إلى اتصاف كل من القول وقائله بالبلاغة"[٢]

ثانيا: تحرير مصطلح التكرار عند البلاغيين.

التكرار نوع من أنواع الإطناب ووسيلة من وسائله، وهو ظاهرة أسلوبية ترددت كثيرًا فى بيئات المفسرين، والبلاغيين، والنقاد، والمؤلفين فى إعجاز القرآن الكريم، وحظيت باهتمام ملحوظ من العلماء، ومع هذا الاهتمام فقد ظل (التكرار) من المصطلحات التى لم تنل حقها من الضبط والتحديد مما أوقع كثيرًا من العلماء فى خلط واضطراب فى تناول هذه الظاهرة الأسلوبية.

---

(١) الرحمن : ١٣.

(٢) التكرار بلاغة للدكتور/ إبراهيم الخولى، إصدار الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٣م، ، ص٣،٤.

ولعل السر فى اهتمام العلماء بظاهرة التكرار هو أن بعضهم يرى أنه نقيصة، أو مظنة نقيصة؛ متأثرًا بشبهات الطاعنين فى إعجاز القرآن الكريم التى منها تكرار القصص القرآنى....، ولكن سرعان ما برز المخلصون من علماء الأمة للدفاع عن إعجاز القرآن وظاهرة التكرار، غير أن دفاعهم عن تلك الظاهرة دفعهم إلى تأويل (التكرار) بما يخرجه عن طبعه، ويُحوِّله إلى غير حقيقته، فرأوا سد الذريعة بنفى التكرار عن القرآن، وتأويل ما يبدو تكرارًا فيه بما يخرجه عن التكرار، مع أن التكرار أسلوب بلاغى يقتضيه الحال ويتطلبه المقام، وهو وسيلة من وسائل البيان التى يفاخر بها(١).

ومَن قَبِل منهم التكرار وسيلة بيانية يقتضيها الحال ويتطلبها المقام حدث له خلط ولَبْس فى تحديد مفهوم التكرار، فأدخل فيه ما ليس منه، فهذا ابن قتيبة يُعنوِن بعض مباحثه فيقول: (باب تكرار الكلام والزيادة فيه)، ولا شك أن تكرار الكلام شيء والزيادة فيه شيء آخر، وليس بينهما جامع يُسوِّغ وضعهما تحت ترجمة واحدة، فإذا أخرجنا (الزيادة فى الكلام) ونَحَّيْناها عن التكرار فى حديثه وجدنا فى كلامه أيضا خلطًا بين (التكرار) وبين أمور ليست من التكرار ولا التكرار منها(٢).

---

(١) يراجع: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ت/ السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، دار التراث بالقاهرة، ص٢٣٢.

، النكت فى إعجاز القرآن للرمانى (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن)، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٨م، ص١٠١.

، بيان إعجاز القرآن للخطابى (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن)، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٨م، ص ٥٢.

، والعمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق، ت/ محمد محى الين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، جـ٢، ص٧٣.

، المثل السائر لابن الأثير، ت/ الحوفى وطبانة، نهضة مصر، ط أولى، ١٣٧٩ه – ١٩٥٩م، جـ٣، ص٣.

، المغنى للقاضى عبد الجبار، ت/ الشيخ أمين الخولى، ط وزارة الثقافة والإرشاد القومى، نشر دار الكتب، القاهرة، ١٣٨٠ه ١٩٦٠م، ، جـ١٦، ص٣٩٧.

(٢) ينظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص٢٣٢-٢٤٠.

وهذا ابن الأثير يقول فى التكرار: هو(دلالة اللفظ على المعنى مُرَدّدًا)[١]، وهو تعريف غامض فضفاض لا يجمع ولا يمنع، وقد أدخل فيه ما سماه (تكرار المعنى) مثل قوله: (أطعنى ولا تعصنى)، فهو يرى أن معنى (أطعنى) نفس معنى (لا تعصنى)، مع أن الشيخ عبد القاهر قد حسم هذه القضية فقال: "لا سبيل إلى أن تجىء إلى معنى بيت من الشعر أو فصل من النثر فتؤديه بعينه، وعلى خاصيته وصفته بعبارة أخرى حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه فى صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور، ولا يغرنك قول الناس: (قد أتى بالمعنى بعينه، وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه) فإنه تسامح منهم، والمراد: أنه أدى الغرض، فأما أن يؤدى المعنى بعينه على الوجه الذى يكون عليه فى كلام الأول حتى لا تعقل ههنا إلا ما عقلته هناك، وحتى يكون حالهما فى نفسه حال الصورتين المشتبهتين فى عينيك كالسِّواريْن والشِّنْفَيْن ففى غاية الإحالة، وظن يفضى بصاحبه إلى جهالة عظيمة، وهى: أن تكون الألفاظ مختلفة المعانى إذا فُرِّقَت ومُتّفقتها إذا جُمِعت وأُلِّف منها كلام"[٢].

يفهم من كلام الشيخ: أنه ليس للمعنى الواحد إلا عبارة واحدة، ومن المحال أن تتعاقب عبارتان على معنى واحدًا، وكلام الشيخ يسقط من أقسام التكرار عند ابن الأثير القسم الذى (يوجد فى المعنى دون اللفظ) فما دام اللفظ قد اختَلَف باختلاف بعض مفرداته، أو بتقديم وتأخير فى نظمه فقد اختلف المعنى لا محالة فلا تكرار[٣].

فإذا ما تركنا ابن الأثير ووقفنا مع ابن أبى الأصبع وجدناه يستخدم مصطلح التكرار ويقصره على تكرار المفردات، يقول: "هو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة؛ لتأكيد الوصف، أو المدح، أو الذم، أو التهويل، أو الوعيد"[٤]، ولا شك أن ابن أبى الإصبع ضيّق واسعًا، واقتصر من التكرار على تكرار اللفظ دون تكرار الجملة وما فوق الجملة.

ونقف مع الخطيب القزوينى حيث جعل التكرار وسيلة من وسائل الإطناب ونوعًا من أنواعه، وهو يشترط فى التكرار أن يكون لنكتة، ويذكر من تلك النكات: تأكيد الإنذار، وزيادة

---

(١) المثل السائر، جـ٣، ص٣.

(٢) دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر، ت/ الأستاذ محمود شاكر، ط/ مكتبة الخانجى، القاهرة، ص٢٠٦.

(٣) ينظر التكرار بلاغة للدكتور/ إبراهيم الخولى، ص١٢،١١.

(٤) تحرير التحبير لابن أبى الإصبع ص ٣٧٥، ت. د/ حفنى شرف.

التنبيه على نفى التهمة، وقد يُكرر اللفظ لطول فى الكلام، وقد يُكرر لتعدد المتعلق[١]، وقد سار على نهج الخطيب شُرَّاحُ التلخيص.

ثم إن الدراسة تميل فى تعريف التكرار إلى ما قرره وانتهى إليه الأستاذ الدكتور/ إبراهيم الخولى فى كتابه (التكرار بلاغة) حيث قال: "التكرار عندنا هو: إعادة العبارة بنصِّها فى سياق واحد؛ لغرض يستدعى إعادتها، وفى مقام يقتضى هذه الإعادة، وقد يكون ما يُقتضى تكراره لفظًا مفردًا، وقد يكون بعض جملة، وقد يكون جملة فما فوقها"[٢].

وفى ضوء ذلك يبدو أن شرط التكرار هو اتحاد السياق والمقام، وعدم اختلاف العبارة المعادة أدنى اختلاف، فإذا اختلف السياق فلا تكرار، وإذا اختلف المقام فلا تكرار كذلك، وإذا تغيرت العبارة ولو بتقديم لفظة أو تأخيرها فلا تكرار؛ لأن المعنى حينئذ يختلف عن المعنى الأول[٣].

والتكرار بهذا المفهوم يُخرج ترديد القصص القرآنى فى سورتين أو أكثر من التكرار؛ ذلك أن كل مساق لقصة منها له مقامه وله سياقه وله غرضه المقصود منه، وهذا هو الذى يفسر ما بين مساقات القصة من اختلاف بالطول والقصر، وبالتقديم والتأخير وبالتركيز على بعض المضامين فى موضع وعلى بعضها فى موضع آخر، وبالعناية بمغزى وغرض فى سياق، وبمغزى وغرض مختلف فى سياق آخر[٤].

والتكرار بهذا المفهوم يخرج ما يسمى عند ابن قتيبة وابن الأثير بـ(تكرار المعنى) كقولهم: أطعنى ولا تعصنى، وقوله – تعالى – : (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)[٥]؛ ذلك أن المعانى لا تتكرر إلا إذا أُعِيدت العبارة التى تؤديها كما هى بلا زيادة أو نقصان، وبلا تقديم أو تأخير، أو أدنى تغيير يمس النظم، فما دام الكلام قد اختلف باختلاف بعض مفرداته، أو بتغيير فى نظمه فقد اختلف المعنى لا محالة، وعليه فلا تكرار[٦].

---

(١) الإيضاح تعليق عبد المتعال الصعيدى، جـ٢، ص١٣٩، وما بعدها.
(٢) التكرار بلاغة، ص٢١.
(٣) ينظر: التكرار بلاغة، ص٣٨-٤٠.
(٤) ينظر: التكرار بلاغة، ص٢١.
(٥) يوسف: ٨٦.
(٦) ينظر: التكرار بلاغة، ص٢١.

والتكرار بهذا المفهوم ظاهرة منتشرة فى القرآن الكريم، وفى الحديث الشريف، وفى شعر الشعراء، ونثر الأدباء؛ لأن الدواعى التى تدفع إليه قائمة فى فطرة الناس، والمواقف التى تقتضيه تفيض بها الحياة، ثم هو قبل ذلك فن بلاغى أصيل ووسيلة بيانية لا يصلح فى موضعها غيره(١).

بقى أن نشير ونحن فى معرض تحرير مصطلح (التكرار) أن وحدة التكرار قد تكون لفظة مفردة، وقد تكون بعض جملة، وقد تكون جملة فما فوقها، "وحين تكون وحدة التكرار لفظة مفردة فقد دخل أسلوب التكرار فى قالب التوكيد اللفظى ، وتكرار المفردات يجب أن يكون متتابعا لا يقطعه فصل بعاطف أو غيره؛ لأن الفصل يتنافى مع قصد التوكيد، وإنما النهج فى تكرار المفردات ما جاءت عليه الآيتان الكريمتان: (كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)(٢).

وحين تكون وحدة التكرار جملة يجوز دخول حرف العطف لكن ليس على إطلاقه، وإنما الذى يجوز توسطه بين الجملتين المؤكِّدة والمؤكَّدة هو (ثم)، وهذا شائع، و(الفاء) وتوسطها أقل شيوعا من توسط (ثم) لكنه جائز لا توقف فيه، وذلك نحو قوله – تعالى – : (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ)(٣)، وقوله – تعالى – : (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)(٤).

وأنا لست مع الدكتور/ إبراهيم الخولى فى قوله: "ويجب أن يلاحظ أن اقتران الجملة المؤكِّدة (المكررة) بعاطف هو اقتران صورى لا دلالة للعاطف فيه على أى من معانيه"(٥)، والذى جعل الدكتور يجرد العاطف من معانيه: أن الغرض الأصيل من التكرار هو توكيد المعانى وتقريرها، وبناء على هذا يكون الفصل هو الأحق بها، فإذا جاء العاطف يكون صوريا لا دلالة له على معانيه، وهذا ظاهر كلام البلاغيين(٦)؛ لأنهم يمنعون العطف ما لم يكن فى

---

(١) ينظر: التكرار بلاغة، ص٢٥-٢٧.
(٢) الفجر: ٢١-٢٢.
(٣) التكاثر: ٣-٤.
(٤) القيامة: ٣٤-٣٥.
(٥) ينظر: التكرار بلاغة، ص٧٩-٨٠.
(٦) ينظر: دلائل الإعجاز، ص٢٢٧، نهاية الإيجاز للرازى، المكتب الثقافى للنشر والتوزيع، ط/ أولى، القاهرة، ص٢٢٧، البلاغة العالية للشيخ/ عبد المتعال الصعيدى، مكتبة الآداب، القاهرة، ط/ أولى،١٩٨٩م، ص١٠٦.

المعطوف زيادة يغاير بها معنى ما عطف عليه، وإلا كان من عطف الشيء على نفسه، كما أثبتوه فى كلامهم عن كمال الاتصال.

ويبدو هنا مكمن الإشكال، فلسان العرب حافل بأمثلة عُطفت فيها جملة التوكيد على الجملة المؤكدة، مما أدى إلى تضارب الآراء فى إجازة مثل هذا العطف، أو منعه، فالنحاة والمفسرون أجازوه(١)، وعثروا على أسراره، والبلاغيون منعوه، لأن مثل هذا العطف إذا لم يكن له غرض سوى التوكيد يصبح دخول العاطف فيه ضربا من الزيادة العارية عن الفائدة، وهذا القول يتصادم مع قوانين أهل اللغة، فضلا عن أنه لا ينبغى القول بمثله فى الكتاب الكريم، وفى كلام خير المرسلين، هذا وسيأتى مزيد من التوضيح لهذا الأمر فى مكانه من البحث – إن شاء الله –.

والتكرار بهذا المفهوم الذى حدده الدكتور/ إبراهيم الخولى هو الذى ارتضته الدراسة، وستسير على نهجه فى جانبها التطبيقى، ومما يؤيد صحة هذا المفهوم الذى ارتضته الدراسة أن الأمثلة التى ساقها الخطيب القزوينى تحت فن التكرار لا تخرج عن التعريف الذى انتهى إليه الدكتور الخولى، وبخاصة أن الخطيب لم يُعَرّف التكرار، وإنما ذكره نوعا من أنواع الإطناب(٢)، مما يجعل الدراسة مطمئنة إلى دقة مفهوم التكرار عند الدكتور الخولى، وأن التكرار بهذا المفهوم قد خلص من الخلط والاضطراب.

ومما يؤيد صحة هذا المفهوم – أيضا – قول الإمام عبد القاهر: "واعلم أنه ليس أعجب من حال من يرى كلامين أجزاء أحدهما مخالفة فى معانيها لأجزاء الآخر، ثم يرى أنه يسع فى العقل أن يكون معنى أحد الكلامين مثل معنى الآخر سواء"(٣)، فاختلاف الألفاظ، أو اختلاف

---

(١) ينظر تسهيل الفوائد لابن مالك، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٦٦، شرح الكافية للرضى، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ٢، ص٣٦٧، الكشاف للزمخشرى، ط/ مصطفى الحلبى، القاهرة ١٣٩٢ه ١٩٧٢م، جـ١، ص٣٢٢، التفسير الكبير للرازى، دار الفكر للطباعة والنشر، ط/ ثالثة، ١٤٠٥ه ١٩٨٥م، جـ٩، ص١٧١، تفسير البيضاوى، دار صادر، بيروت، جـ٨، ص١٢٨، وحاشية الشهاب، دار صادر، بيروت، جـ٨، ص٣٩٤.

(٢) ينظر: الإيضاح بتعليق الصعيدى، حـ٢،ص١٣٦.

(٣) دلائل الإعجاز: ص٤٢٨-٤٢٩.

النظم يوجب اختلاف المعانى، ويُخرج الكلام من دائرة التكرار؛ لأن التكرار هو: ما أعيد فيه الكلام مرة أخرى أو مرات، وكانت إعادته كما هو دون تغيير أو تبديل، وبشرط أن يكون ذلك فى سياق واحد ومقام واحد ولغرض واحد.

ثالثا: القيمة البلاغية للتكرار.

تنبّه العلماء قديمًا وحديثًا إلى دقة التكرار ولطف مسلكه وقيمته البلاغية، فذكروا أنه من مقاتل علم البيان[١]، وأنه فن دقيق المأخذ، وأنه من محاسن الفصاحة، وبينوا مدى الحاجة إليه فى الحال الذى يقتضيه والمقام الذى يستدعيه، وأنه إنما يأتى فى الأمور المهمة؛ لتثبت وتتقرر[٢].

يقول الدكتور الخولى: "إن التكرار وسيلة بيانية أصيلة، وطريق من طرق التعبير تفرضه ضرورات التخاطب فى الحياة المعتادة التى يتقلب فيها الناس حيث يتبادلون الأفكار والمعانى والأغراض التى لا يستقيم بدونها أمر الحياة، وتفرضه ضرورات التواصل العقلى والنفسى والشعورى فى الحياة العقلية والأدبية التى يفزع إليها الناس؛ تخفّفًا من هموم العيش ووطأة ما يعانون من مكابدة ومشقة فى سبيله، وابتغاء إمتاع النفس والروح بثمار العقول

---

(١) كان العلماء قبل السكاكى يطلقون كلمة (البيان) ويريدون بها البلاغة.

(٢) ينظر: الخصائص لابن جنى، ت/ محمد على النجار،ط/ ثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٨٨م، جـ٣، ص١٠٣

،والمثل السائر لابن الأثير، جـ٣، ص٣.

، وتحرير التحبير لابن أبى الأصبع، ت. د/ حفنى شرف، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ص٣٧٥

، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م، جـ٣، ص٢٢٤

، والمزهر فى علوم اللغة للسيوطى، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦م، جـ١، ص٣٣٢.

، والبلاغة فى القراءات الشاذة عند ابن جنى للدكتور/ عبد المنعم الأشقر، ط/ أولى، مطبعة الأمانة ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، ٢٠٢.

الممتازة، ونفحات النفوس الصافية، وسكب الحس النافذ، وذوب العواطف الإنسانية فى جيشانها المضطرب وتقلبها العجيب، تلمسه فى حديث أبسط الناس حين يحوجه الموقف ليؤكد صدق دعواه، أو خبره، أو صدق شعوره وعاطفته فيكرر القسم (والله...والله...والله)، أو دعوة ضيفه للطعام (كل... كل... كل... والله)، أو تنبيه مخاطبه؛ كيلا ينسى ما كلفه به (لا تنس...لا تنس).

فإذا نحن تركنا لغة الحياة العادية، وأجلنا النظر فى نتاج الشعراء والأدباء، وفى بيان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو قمة الفصاحة الإنسانية، ثم فى كتاب الله – تعالى – ببيانه المعجز تبين لنا ما لهذا الفن (التكرار) من مكانة فى البيان، وما له من منزلة بين وسائله، وأنه من الشيوع والذيوع بالدرجة التى تجعله فى مقدمة وسائل البيان فى استخدام الأدباء والشعراء"[١].

والتكرار أسلوب توكيدى من أروع أساليب التأكيد بل هو أقوى أساليب الترسيخ والإقناع وأشدها إيحاء بالحسم والجد[٢]، وقد استعملته العرب فى شتى أساليبها، يقول أبو هلال العسكرى مبيناً الهدف من استعمال العرب للتكرار: "واستعملوا التكرار؛ ليتوكد القول للسامع، وقد جاء فى القرآن وفصيح الشعر منه كثير"[٣].

ويوضح الزركشى الهدف من التكرار وأثره على النفس فيقول: "إن الكلام إذا تكرر: تقرر، وقد أخبر الله – سبحانه – بالسبب الذى لأجله كرر الأقاصيص والأخبار فى القرآن فقال: (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[٤]، وقال: (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا)[٥] [٦].

---

(١) التكرار بلاغة، ص٣٠.

(٢) ينظر: التفسير البيانى للدكتورة/ عائشة عبد الرحمن، ط/ دار المعارف، القاهرة، د. ت، جـ١، ص٧٩.

(٣) الصناعتين لأبى هلال العسكرى، ص١٩٩.

(٤) القصص: ٥١.

(٥) طه: ١١٣.

(٦) البرهان فى علوم القرآن للزركشى، جـ٣، ١١٠.

وابن الأثير يخص بالتكرار ما أهم واشتدت به العناية، فيقول: "إن التكرار يأتى لما أهم من الأمر بصرف العناية إليه ليثبت ويتقرر"(١)، ويقول ابن قتيبة: "إن القرآن نزل بلسان العرب وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم (التكرار)؛ إرادة التوكيد والإفهام"(٢).

إن التكرار له أسبابه ودوافعه الكامنة فى فطرة النفس تثيرها وتحركها مواقف الحياة، فالطفل حين يسمع لفظة جديدة يكررها كأنه يدرك أن التكرار هو الوسيلة لكى يحفظها ويضيفها إلى ثروته اللغوية التى يحرص على تنميتها وزيادتها، والمربون والمعلمون – وبخاصة معلمى الصغار ومربيهم – يدركون فطرةً وهم يلقنون علمًا أن (التكرار) من قوانين التعليم التى لا يغنى غيرها غناءها فى اكتساب أنواع من المعرفة، وشعاب من العلم لا ينجع فى حفظها واستيعابها وامتلاكها إلا التكرار، والدعاة والوعاظ يجدون أنفسهم – بوعى وبدون وعى – مدفوعين دفعًا إلى اصطناع (التكرار) وسيلة للإفهام، ولتقرير ما يُراد له أن يثبت فى العقول، ويرسخ فى الضمائر من حقيقة معتقد، أو حكم شريعة، أو مَثَل يُحتذى، أو قيمة توجه السلوك، والقادة والزعماء، وكل الذين يريدون أن يُؤثِّروا فى الجمهور ويشكلوا اتجاهه العام يصطنعون (التكرار) بل ويحتالون له؛ لأنه يسعفهم فى مجال الدِّعَاية لأنفسهم ولسياساتهم ولمذاهبهم وتوجهاتهم.

ومتابعة عابرة لنشرات الأخبار فى إذاعات العالم تُرينا مدى تكرار (نبأ) بعينه؛ لأنه يحمل مضمونا يُراد له أن يذيع وينتشر على أوسع نطاق ممكن فتكون إعادته فى كل النشرات طوال اليوم وربما لبضعة أيام هى الوسيلة التى تحقق ما يُراد له من ذيوع وانتشار، وما يجرى فى مجال الدعاية والإعلان على كل المستويات أظهر وأدل على قيمة (التكرار) وأثره من كل ما يقال فى هذا المقام.

والمتكلم حين يستشعر أن مراده لم يستبن لمخاطبه كما يُريد هو، أو حين يعتقد أن المخاطب كان غافلا وقت التلقى، أو واقعًا تحت تأثير عوامل تجعله غير مهتم بما يُلقى إليه، أو تجعله يتظاهر بأنه لا يبالى بما يسمع، أو يتجاهل قصد المتكلم.....، المتكلم حين يستشعر شيئا من هذا لا يجد أمامه إلا (التكرار) يُبين به حقيقة مقصودِه، ويقرره تقريرًا لا يترك

---

(١) المثل السائر، جـ٣، ص١١.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص٢٢٥.

للمخاطب تعلّة أو تحلّة يتحلل بها من تبعات ما ألقى إليه، أو يتعلل بها حين تكون استجابته غير متكافئة لما عليه موقف المتكلم من عناية واهتمام.

واستقراء مقامات (التكرار) فى الأنماط العالية من الكلام البليغ يُظهر بينها عنصرًا مشتركًا يتمثل فى أنها (مقامات) تلامس الشئون الكبرى فى حياة الناس، شئون العقائد والمذاهب: بيانًا، ودعوة، وحوارًا، وحجاجًا، وجدلا، وشئون الحروب والصراع: دفعًا، وثأرًا، وانتقامًا، وتغنيًا بالقوة والشجاعة، وتفاخرًا بالبطولات، وتسجيلا للانتصارات، وشئون التشريع، والتعليم، والتلقين، والإعلام، والتوجيه.

وحتى مقامات المديح والهجاء، والعتاب والغزل لا تستغنى عن(التكرار) فهو الذى يبرز مكنون نفس المحب الغزل، وما يعتمل فيها من تشوق واستعذاب كما يقول ابن رشيق[١]

وهو الذى يستل ما فى النفوس الغاضبة...، ويهيئ للعتاب طريقًا لغسل النفوس وتطهيرها مما كان عالقًا بها...، وهو الذى يُشَهّر بالمهجو ويُمَكّن لما يراد من ازدرائه عند الناس...، وهو الذى يُنَبَّه به الخامل، ويُذْكر به المغمور من الممدوحين.

أما مقام (الرثاء) فهو أولى المقامات بالتكرار، يقول ابن رشيق: "وأولى ما تكرر فيه الكلام: باب (الرثاء)؛ لمكان الفجيعة وشدة القرحة التى يجدها المتفجع"[٢]، ومثله مقام الوعيد والتهديد، ومقام الامتنان والتذكير...، فالتكرار فن قولى ينبع من الفطرة وتدفع إليه مواقف الحياة، وتقتضيه (مقامات) لا يلبيها مثله، وتستدعيه أغراض لا يؤديها سواه[٣].

والتكرار أسلوب له أغراض بلاغية كثيرة لا تقف عند الحدود الضيقة التى ذكرها الخطيب، كتأكيد الإنذار، وزيادة التنبيه، وطول الكلام، وتعدد المتعلّق، ونحوها من الأغراض، وإنما هو أسلوب له أغراض بلاغية كثيرة تختلف باختلاف كل حديث؛ ولهذا سوف نعرض – إن شاء الله – لبيان أغراض التكرار عند دراسة الأحاديث النبوية فى مقاماتها، وأحسب أن دراسة (التكرار) فى ضوء مقاماته هو الطريق الأمثل والأقدر على إثبات بلاغته، وكشف جوانب الجمال فيه.

---

(١) العمدة لابن رشيق القيروانى، جـ٢، ص٥٩.

(٢) العمدة لابن رشيق القيروانى، جـ٢، ص٦١.

(٣) ينظر: التكرار بلاغة: ٨٢-٨٤.

أغراض التكرار ومقاماته:

التكرار هو إعادة العبارة بنصها فى سياق واحد لغرض يستدعى إعادتها وفى مقام يستدعى هذه الإعادة، وهو بهذا المفهوم مقتضى حال تستدعيه مقامات لا يصلح فيها غيره، وتتطلبه أغراض لا يحققها سواه، والتشابك بين أغراض التكرار ومقاماته قَوِىٌّ، والترابط بينهما وثيق بحيث يصعب – إن لم يكن مستحيلا – أن نغفل حديث الأغراض ونحن بصدد الحديث عن المقامات، وبخاصة أن الغرض عنصر من عناصر المقام(١).

والأغراض البلاغية لأسلوب (التكرار) لا تقف عند الحدود الضيقة التى ذكرها البلاغيون، ولا تستطيع دراسة أن تحددها وتحصرها، بل هى متروكة لسياقات الكلام ومقاماته...، أما مقامات الكلام فيمكن حصرها وضبطها.

مهما يكن من أمر فالحديث عن أغراض التكرار يُعدّ مدخلا للحديث عن مقاماته التى تتطلبه، ولعل أجمع ما يساق هنا حول (أغراض التكرار) مدخلا للحديث عنها: ما ذكره ابن جنى – رحمه الله – بعنوان (باب فى الاحتياط) حيث قال: "اعلم أن العرب إذا أرادت المعنى مكنته واحتاطت له"(٢).

فهذه كلمة جامعة عَبَّر فيها فقيه العربية بلا منازع عن مزاج عام لأصحاب هذه اللغة، وعن طابع عقلى نفسى يحكم منطقهم ويوجه تعبيرهم فهم إذا أرادوا المعنى وقصدوا إفهامه لمن يخاطبونه مكنوه واحتاطوا له، وتمكين المعنى والاحتياط له تلخيص جيد ودقيق لأغراض (التكرار) يبدو هذا واضحا لمن تصفح مواضع التكرار فى كتاب الله – تعالى – وفى حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفى أشعار الجاهليين وغير الجاهليين على سواء، أما وسيلة تمكين المعنى والاحتياط له فهى نحويًّا (التوكيد) وبلاغيًّا (التكرار)(٣).

و(تمكين المعنى والاحتياط له) عبارة جامعة يمكن أن يندرج تحتها كل ما ذكر ويذكر من أغراض (التكرار) فى كلام المفسرين والبلاغيين والنقاد، وهذه العبارة تتسع لكل ما يدخل

---

(١) ينظر: مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث للدكتور/ إبراهيم الخولى، ص.....

(٢) الخصائص لابن جنى جـ٣، ص١٠٣.

(٣) ينظر: التكرار بلاغة ص١٠٠-١٠١.

تحت أغراض التكرار نصًّا أو استنباطًا فى حديث هؤلاء عن التكرار، وسوف نضيف ما نستظهره كذلك فى ثنايا حديثنا عن المقامات؛ لصعوبة الفصل بينها وبين الأغراض من جهة، وللاختصار وتحاشى التطويل من جهة أخرى.

والآن بعد أن علمنا قيمة التكرار وأنه فن بلاغى أصيل، وأداة بيانية عريقة راسخة فى موقعها بين أدوات البيان، تسعف المتكلم والمنشئ فى مقامات لا يسعفه فيها غيرها، وتلبى أغراضًا لا يحققها سواها، وتفى من مطالب الإفادة؛ قصدًا من المتكلم، ومطالب الإمتاع؛ غاية للسامع بما لا يفى به أىٌّ من وسائل البيان وأدواته الأخرى، بعد بيان تلك القيمة البلاغية لأسلوب التكرار أدعوك أيها القارئ الكريم لنقف سويًّا على بلاغة هذا الأسلوب فى ضوء البيان النبوى الشريف، لنرى كيف استعمل النبى – صلى الله عليه وسلم – هذا الفن البلاغى الأصيل، وتلك الأداة البيانية العريقة؛ ليحقق بها الإفادة والإمتاع فى آن واحد.

المبحث الأول

بلاغة التكرار فى مقام الدعاء والاستغفار

يُعدّ مقام الدعاء والاستغفار من أدعى المقامات وأنسبها للتكرار، وإذا كان الدعاء مـخ العبادة – والاستغفار منه – فإن تكرار الدعاء والاستغفار مظهر من مظاهر العبودية الحقَّـة، وعلامة من علامات اليقين الواثق فى وعد الله، فهو – سبحانه – القائل: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)(١)، وهو القائـل – جـل شأنه– : (وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا)(٢).

إن الدعاء باب الرحمة ووسيلة استنزالها من واهبها – سبحانه – ،ومن أطـال قـرع الباب فهو أخلق أن يلج، وليس على الداعى من بأس أن يلح فى الدعاء، وأن يديم قرع الباب، بل إنه مدعو لذلك من معلم الناس الخير – صلوات الله وسلامه عليـه – فلنـا فيـه الأسـوة الحسنة، فلنتأمل التكرار فى بعض أدعيته – صلى الله عليه وسلم –

التكرار وطلب السُّقْيَا.

عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَذْكُرُ أَنَّ رَجُلًـا دَخَـلَ يَـوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ وِجَاهَ الْمِنْبَرِ، وَرَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ – قَـائِمٌ يَخْطُـبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّـهِ هَلَكَـتْ الْمَوَاشِـي، وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا اللَّهُمَّ اسْقِنَا اللَّهُمَّ اسْقِنَا، قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَـحَابٍ، وَلَـا قَزَعَةً، وَلَا شَيْئًا، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، قَالَ فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِـهِ سَـحَابَةٌ مِثْـلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللَّهِ، مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا، ثُمَّ دَخَـلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَائِمٌ يَخْطُـبُ،

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) النساء: ١١٠.

فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ، اللَّهِ هَلَكَتْ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ، وَالْجِبَالِ، وَالْآجَامِ، وَالظِّرَابِ، وَالْأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ، قَالَ شَرِيكٌ: فَسَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ أَهُوَ الرَّجُلُ الْأَوَّلُ قَالَ لَا أَدْرِي[1]

فالحديث يصور لنا مشكلة إنسانية تمس جوهر حياة البشر، تلك المشكلة تتمثل فى إمساك السماء عن المطر، وما يتبع ذلك من هلاك الزروع والأموال والناس، فالحياة وثيقة الاقتران بالماء، كما جاء فى قوله – تعالى – :(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ)[2]، وهذا الأمر الذى يمس حياة البشر هو ما أزعج الأعرابى، وألجأه إلى البحث عن مخرج من تلك الكربة التى تكاد تقضى على الحياة.

وبما أن تلك الشدة تتعلق بحياة البشر، وانفراجها يتطلب توددًا إلى رب السماء، فقد اختار الأعرابى من البشر أطهرهم – صلى الله عليه وسلم – فهو أقرب الناس إلى رب العباد، واختار من البقاع خيرها، وهو المسجد، واختار من الزمن أفضله، وهو يوم الجمعة وقت الخطبة؛ ليبث فزعه، ويبدى خوفه، ويبرز حاجة الناس إلى دعاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

وانظر إلى أول ما نطق به الرجل: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتْ الْمَوَاشِي وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثَنَا)، لقد استهل الرجل شكواه بالنداء: (يَا رَسُولَ اللَّهِ)، والغاية من هذا النداء: أن يصغى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى أمر ذى بال يريد الأعرابى إبلاغه به، ومما يلحظ فى هذا النداء: أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قريب من الرجل لا يجاوز امتداد صوته، وهذا يستدعى من الرجل أن ينادِى بالأدوات الموضوعة لنداء القريب (كالهمزة وأى)، لكن الرجل اختار (يا) الموضوعة لنداء البعيد؛ إشعارًا ببعد منزلة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعلو مكانته، فقد نَزَّل الرجل بُعْد منزلة الرسول وعلوّ مكانته منزلة البعد المكانى، ومن هنا جاز له الإتيان ب(يا) الموضوعة لنداء البعيد، هذا فضلا عن أن النداء ب(يا) فى هذا

---

(١) صحيح البخارى، ك: الاستسقاء، ب: الاستسقاء فى المسجد، حديث رقم ٩٦٧، ت/ مصطفى ديب البغا، بيروت، ، جـ١، ص٣٤٣.

(٢) الأنبياء: ٣.

المقام فيه تنبيه على عظم الأمر الذى نُودى من أجله، ومدى خطورته، وارتباط الحياة به؛ حتى يبادر المنادَى بالامتثال والاستجابة.

لقد جاء نداء الرجل للنبى – صلى الله عليه وسلم – بوصفه لا باسمه (يَا رَسُولَ اللَّهِ)، وهذا يشير إلى السبب الداعى للجوء الرجل فى هذه المحنة لشخص الرسول دون غيره، فما لجأ إليه إلا لكونه رسولا يحظى عند ربه بالمقام المحمود، وتأمل الإضافة فى قول الرجل (يَا رَسُولَ اللَّهِ)، وما تتضمنه من تعظيم المضاف، لأن الإضافة إلى الله – تعالى – فيها تشريف ما بعده تشريف، وتعظيم ما بعده تعظيم، وهذا النداء وما فيه من إضافة كأنه يُعِدُّ نفس المخاطَب ويهيؤها لتلقى الأمر الآتى بعد النداء.

وانظر إلى قول الرجل: (هَلَكَتْ الْمَوَاشِي وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ) فقد قدم الرجل بين يدى طلبه ما يؤدى إلى ضرورة الإسراع فى تلبية حاجته وتنفيذ أمره، فقوله: (هَلَكَتْ الْمَوَاشِي) مجاز عن ضعفها المتسبب فيه عدم وجود ما تقتات به من العشب والكلأ المفقود بحبس المطر، والضعيف كالهالك فى انعدام الحركة، ولا شك أن الاستعارة هنا مبناها على المبالغة فى تأكيد الخطر الناتج عن حبس المطر، وأنه سيؤدى إلى هلاك حقيقى للحياة، وفى هذا ما فيه من حسن البيان وتحريك المشاعر وتنشيط الأذهان وتنبيه العقول إلى الخطر المحدق بالناس وأموالهم.

أما قوله: (وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ) ففيه إشارة إلى ضعف الإبل عن السفر؛ لقلة القوت، أو لأنها لا تجد فى طريقها من الكلأ ما يقيم أودَها، أو فيه إشارة إلى نفاد ما عند الناس من الطعام، أو قلته، فلا يجدون ما يجلبونه إلى الأسواق.

ثم تأمل طلب الرجل بعد أن قدم له بالنداء وتصوير ما أصاب البلاد والعباد: (فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا)، ومما لا شك فيه أن الأمر هنا لا يراد به حقيقته من الإلزام والتكليف؛ لأن الرجل يعلم جيدًا سمو مكانة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعلو منزلته، فهو أجل فى نظره من أن يُؤْمَر أو يُكلف، وإنما أراد الرجل: التوسل والدعاء، وإيثار أسلوب الأمر يدل على رغبة الرجل القوية فى تحقيق مطلبه، والاستجابة لرغبته فى الدعاء بالغوث والسُّقيا.

وقد استجاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لطلب الرجل: (فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا)، وأول ما يطالعنا من تلك العبارة (الفاء) فى قول أنس – رضى الله عنه – : (فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَيْهِ)، فالفاء هنا تفيد سرعة الاستجابة لِمَا طُلِب؛ لأنها بوضعها اللغوى تفيد

الترتيب والتعقيب[١]، أى: إن الرجل ما كاد ينهى كلامه حتى رفع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يده بالدعاء، ورفع اليدين ومباشرة الدعاء عقب الطلب مباشرة يشر إلى اهتمام النبى – صلى الله عليه وسلم – وشوقه إلى كشف الغمة وتفريج الكربة، وهو – صلى الله عليه وسلم – لم يكن بمعزل عما أصاب الناس، ولكنه يفوض الأمر لله – تعالى – فلما سئل الدعاء سارع إلى رفع يديه يطلب الغوث والسُّقيا.

والمتأمل فى هذا الدعاء النبوى الشريف: (اللَّهُمَّ اسْقِنَا اللَّهُمَّ اسْقِنَا اللَّهُمَّ اسْقِنَا) يجد أن النبى – صلى الله عليه وسلم – يلح على ربه فى طلب السقيا، ولهذا جاء الدعاء مكررا ثلاثا؛ تأكيدًا على أهمية (السُّقيا)، وشدة ارتباطها بحياة الناس، ورغبة فى إدرار السماء بالماء ؛ حتى تحيا الأرض بالعشب والزرع، وتحيا المواشى بالقوت والكلأ، ويحيا الناس بالرزق والعيش.

ودعاء النبى – صلى الله عليه وسلم – مكون من مقطعين: (اللَّهُمَّ) وهو نداء نابت الميم المشددة فى آخره عن أداة النداء (يا)، والغرض من هذا النداء: (الاستغاثة) أى: أقبل علينا اللهم؛ لإغاثتنا، والمقطع الثانى: (اسْقِنَا) وهو أمر أريد به الدعاء والتوسل، وإيثار أسلوب الأمر يدل على رغبة قوية فى تحقيق السُّقيا ونزول المطر.

وتكرار الدعاء النبوى ثلاث مرات يكشف لنا عما يدور فى نفس النبى – صلى الله عليه وسلم – ومدى رغبته وشوقه إلى نزول المطر، وقد جاء التكرار متلائمًا مع مقام الدعاء، ومتناغمًا مع شوق الداعى – صلى الله عليه وسلم – وتلهفه لنزول المطر، ومقتضى لاعتبارات جعلته حتمًا مقضيًّا لا بديل منه.

ولنتأمل ما ذكره أنس – رضى الله عنه – عقب دعاء النبى – صلى الله عليه وسلم – : (قَالَ أَنَسُ: وَلَا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةً[٢] وَلَا شَيْئًا) إنه يخبر عن نفى

---

(١) ينظر: الجنى الدانى فى حروف المعانى لأبى الحسن بن قاسم المرادى، ت/ د. فخر الدين قباوة، وآخر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص٦١، ومغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى، ت/ الأستاذ محمد محى الدين عبد الحميد، نشر مكتبة ومطبعة محمد على صبيح، القاهرة، جـ١، ص١٦٢.

(٢) القَزَعُ (قطع من السحاب رقاق كأنها ظلّ إذا مرّت من تحت السحابة الكبيرة وفي حديث الاستسقاء وما في السماء قَزَعةٌ أَي قِطْعةٌ من الغيم، وقيل القَزَعُ السحاب المتفرق واحدتها قَزَعةٌ وما في السماء قَزَعةٌ وقِزاعٌ أَي لَطْخةُ غيم) لسان العرب مادة (قزع).

السحاب المتجمع، ويخبر عن نفى السحاب المتفرق، ويخبر عن نفى علامات المطر وأسبابه من ريح وغيرها، وهذا من ذكر العام بعد الخاص، فنفى أسباب المطر: (وَلَا شَيْئًا) عام يدخل فيه السببان الخاصان، وهما: السحاب المتجمع، والسحاب المتفرق، والسر البلاغى الكامن وراء ذكر العام بعد الخاص هنا هو العناية بشأن الخاص؛ لذكره مرتين: مرة بلفظه، ومرة مندرجًا تحت العام، وما كانت تلك العناية بشأن السحاب إلا لأنه أبرز أسباب المطر، وأقوى علامات الغيث.

وقوله: (وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ[١] مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ) إخبار بنفى السحاب المحجوب، وفى هذا إشارة إلى أن السحاب الذى هو مظنة المطر كان مفقودًا لا مستترًا ببيت أو دار، وما ذكره أنس – رضى الله عنه – من نفى أسباب المطر عندما دعا النبى– صلى الله عليه وسلم – بالسُّقيا إنما الغرض منه "الإخبار عن معجزة النبى – صلى الله عليه وسلم – وعظيم كرامته على ربه – سبحانه وتعالى – بإنزال المطر سبعة أيام متوالية متصلا بسؤاله من غير تقديم سحاب ولا قزع ولا سبب آخر لا ظاهر ولا باطن، وهذا معنى قوله: (وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ)، أي: نحن مشاهدون له وللسماء، وليس هناك سبب للمطر أصلا"[٢].

وتأمل قوله: (فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ – سَلْع – سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللَّهِ، مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا)، ف(الفاء) للترتيب والتعقيب، أى: بمجرد أن دعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والحال كما ذكر أنس – رضى الله عنه – من نفى أسباب المطر الظاهرة والخافية – إذ طلعت من وراء جبل (سلع) سحابة، وتنكيرها للتعظيم؛ إذ فيها أسباب الحياة واستمرارها، أما تشبيهها بالتُّرْسِ ففى كثافتها واستدارتها، وليس فى الحجم والقدر كما ذكر الحافظ بن حجر رحمه الله[٣].

أما انتشارها فى وسط السماء؛ فلتعميم الأرض بالماء، والعطف ب(ثم) فيه إشارة إلى أن الله – تعالى – يسع برحمته كل عباده، ويغيث من دعاه واستمطره، فما أمطرت السحابة حتى انتشرت، وانتشارها يأخذ وقتا لا يصلح للتعبير عنه إلا أداة العطف (ثم)، فهى للترتيب

---

(١) سَلْع: موضع بقرب المدينة وقيل جبل بالمدينة. لسان العرب مادة (سلع).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى، جـ٣، ص٣٠١.

(٣) ينظر: فتح البارى، جـ٣، ص٤٤٨، وحاشية السيوطى على سنن النسائى، جـ٣، ١٤.

والتراخي[١]، يقول المرادى: "(ثم) حرف عطف يشرك فى الحكم ويفيد الترتيب بمهلة، فإذا قلت: قام زيد ثم عمرو، آذنت بأن الثانى بعد الأول بمهلة"[٢].

أما قوله: (وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا) فهو كناية عن استمرار السحاب الماطر، وهذا فى الغالب وإلا فقد يستمر المطر والشمس بادية، وقد تحجب الشمس بغير مطر، أما قوله: (سِتًّا) فالمراد به: ستة أيام تامة، وقد وقع فى أكثر الروايات بلفظ (سَبْتًا)، يعنى أحد أيام الأسبوع وهو الذى يلى الجمعة، والمراد به: الأسبوع، فهو من تسمية الشىء باسم بعضه، أطلق الجزء وأراد الكل مجازًا مرسلا بعلاقة الجزئية، يقول العَيْنِى: " قوله: (ما رأينا الشمس سبتا) بفتح السين المهملة وسكون الباء الموحدة، وأراد به اليوم الذي بعد الجمعة، ولكن المراد به الأسبوع، وهو من تسمية الشيء باسم بعضه كما يقال: جمعة، وهكذا وقع في رواية الأكثرين، فإن قلت: كيف عبر أنس بالسبت؟ قلت: لأنه كان من الأنصار، وكانوا قد جاوروا اليهود فأخذوا بكثير من اصطلاحهم، وإنما سَمُّوا الأسبوع سبتًا؛ لأنه أعظم الأيام عندهم كما أن الجمعة أعظم الأيام عند المسلمين"[٣].

ثم تأمل قول أنس – رضى الله عنه – :(ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتْ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا)، ما أشبه فعل هذا الرجل بما فعل الرجل الأول مع الفارق، إن الرجل الأول هُرع إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليطلب منه الدعاء بالسُّقيا، مقدمًا بين يدى طلبه ما يبرر ذلك، وهو هلاك المواشى وانقطاع السبل، واختار من الزمان والمكان أنسبهما؛ لتحقيق ما يصبو إليه، وقد تم له ما أراد، وكرر النبى

---

(١) يقول الدكتور/ الخضرى: "ومن مفاتن هذه اللغة الشاعرة، ودقة مواءمتها بين اللفظ والمعنى: أنها اختارت (الفاء) وهى حرف واحد لمعنى المسارعة، و(ثم) وهى ثلاثة أحرف للمهلة؛ ليواكب قصر الزمن فى النطق ب(الفاء) التوالى السريع للأحداث، ويتناغم طول النطق بحرف المهلة مع التراخى فى وقوع الأحداث" من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم، الطبعة الأولى، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٤١٤ه – ١٩٩٣م، ص١٥٢.

(٢) الجنى الدانى للمرادى، ص٤٢٦، وينظر نتائج الفكر للسهيلى، ت/ د. محمد البنا، دار الرياض للنشر والتوزيع، ص١٢٤.

(٣) عمدة القارى للعينى، ج١٠، ص٤٤٣.باب الاستسقاء فى المسجد.

– صلى الله عليه وسلم – دعاءه وألحّ – كما يقتضى المقام – فى طلب السُّقيا فأرسل الله السماء عليهم مدرارًا.

ماذا بعد؟ لقد أرسل الله عليهم المطر ستة أيام بلياليها حتى جاءت الجمعة المقبلة ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائم على منبره يخطب، فدخل (رجل) غير الأول – لأن النكرة إذا تعددت تنوعت[١] – وبث شكواه: (يَا رَسُولَ اللَّهِ) لقد اختار خير البشر وناداه بأداة البعد؛ تعظيمًا له وتشريفًا، وناداه بصفة الرسالة التى تجعله أكثر الناس تأهّلا لما يُراد منه، وهيأ لطلبه ما يبرره بعد أن اختار الزمان والمكان المناسبين: (هَلَكَتْ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ) نفس ماذكره الرجل الأول، وإن كان الثانى ذكر هلاك الأموال، وهى أعم من هلاك المواشى، والفارق الأظهر بين القولين هو اختلاف السبب، فهلاك الأموال وانقطاع السبل هنا بسبب غير السبب الأول، فكثرة الماء هنا انقطع بسببها المرعى، فهلكت المواشى لعدم الرعى أو لعدم ما يسترها من المطر، أما انقطاع السبل فلتعذر سلوكها من كثرة الماء.

وانظر إلى طلب الرجل: (فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا)، والضمير هنا يعود على الأمطار، أو على السماء، والعرب تطلق على المطر سماء بعلاقة المجاورة[٢]، إن طلب الرجل الأول: (فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثَنَا) مبعثه الجدب الذى هلكت بسببه المواشى وانقطعت السبل، وطلب الرجل الثانى:

---

(١) ينظر: – عند تفسير قوله – تعالى – (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الشرح: ٥، ٦: تفسير البحر المحيط لأبى حيان، ت/ صدقى محمد خليل، دار الفكر بيروت، ١٤٢٠هـ، جـ١٠، ص٥٠١، ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، جـ٣٢، ص٢٠٩، ولطائف الإشارات للقشيرى، ت/ إبراهيم بسيونى، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ٣، ص٧٤٤، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربى، بيروت، ط/ أولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، جـ٣٠، ص٣٦٦.

(٢) وهى أن يعبر عن الشىء باسم ما يجاوره، وذلك إذا كثر اقتران الاسمين ومجاورتهما كثرة تسوغ استعمال أحدهما مكان الآخر، كما فى إطلاق لفظ الراوية على المزادة، أى: قربة الماء فى قولنا: شربنا من الراوية، أو خلت الراوية من الماء، والراوية: اسم للبعير الذى يحمل عليه الماء، فلما كثرت مجاورة المزادة لظهر الراوية أطلق على المزادة اسم الراوية مجازا مرسلا علاقته المجاورة، ومنه قولنا: أصابتنا السماء، نريد: الغيث المجاور عادة لجهة السماء، ينظر: الإيضاح بتعليق الصعيدى، جـ٣، ص٨١، وعلم البيان، للدكتور بسيونى فيود، ص١٥٩.

(فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا) مبعثه الضرر من كثرة الماء الذى هلكت بسببه الأموال وانقطعت السبل، وما بين الطلبين أسبوع عبر عنه أنس – رضى الله عنه – بأداة العطف (ثم) التى تفيد الترتيب والتراخى الزمنى، "وهى أداة ربط رقيقة تسوس الألفاظ برفق وتشد عراها فى أناة، وتجمع أباعدها ومتنافرها فى يسر ولين، وذلك ما ينم عنه أصلها الذى تنتسب إليه، فَالثَّمُّ: إصلاح الشىء وإحكامه، وثَمَّ الشىء يَثُمُّهُ: جَمَعَهُ"(١).

قال أنس – رضى الله عنه – يصف لنا فعل الرسول– صلى الله عليه وسلم – أمام طلب الرجل الثانى: (فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ(٢) وَالْجِبَالِ وَالْآجَامِ(٣) وَالظِّرَابِ(٤) وَالْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ، وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ).

ولنتأمل قول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ.....) لنرى أدب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى الدعاء "إنه لم يدع برفع المطر من أصله، بل سأل رفع ضرره، وكشفه عن البيوت والمرافق والطرق، بحيث لا يتضرر به ساكن ولا ابن سبيل، وسأل بقاءه فى مواضع الحاجة بحيث يبقى نفعه وخصبه"(٥)، ويستنبط من هذا الدعاء: "أن من أنعم الله عليه بنعمة لا ينبغى له أن يتسخطها لعارض يعرض فيها، بل يسأل الله رفع ذلك العارض وإبقاء النعمة"(٦).

ويلحظ فى دعاء النبى– صلى الله عليه وسلم – أنه بُنِى على الإيجاز بالحذف الذى يتناسب مع اللهفة إلى سرعة الإجابة بوقف ضرر المطر، وأصل العبارة: اللهم أمطر حوالينا ولا تمطر علينا، أو: اللهم اجعل المطر حوالينا ولا تجعله علينا، والإيجاز هنا – كما ذكرت –

---

(١) ينظر: لسان العرب مادة (ثم)، من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم للدكتور/ الخضرى، ص١٥٣.

(٢) الآكام: هى الروابى المشرفة دون الجبال، لسان العرب مادة (أكم).

(٣) الآجام : الشجر الكثير الملتف، لسان العرب مادة (أجم).

(٤) والظِّرابُ: الرَّوابي الصِّغارُ واحدها ظَرِبٌ بوزن كَتِفٍ، لسان العرب مادة (ظرب).

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى، جـ٣، ص٣٠١.

(٦) فتح البارى، جـ٣، ص٤٤٨.

يتناسب مع مقام الدعاء برفع الضرر، ثم تأمل الجملة الثانية من دعاء النبى – صلى الله عليه وسلم – (اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ، وَالْجِبَالِ، وَالْآجَامِ، وَالظِّرَابِ، وَالْأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ) وقد فصلت عن سابقتها؛ لأنها بيان لها، ففى الجملة الأولى خفاء وإبهام، وفى الثانية بيان وإيضاح، والبيان والمُبيّن كالشىء الواحد فلا يعطف أحدهما على الآخر؛ لما بينهما من قوة الترابط وكمال الاتصال...، وتكمن بلاغة هذه الصورة فى أن للبيان بعد الإبهام وقعًا فى النفس وأثرًا حسنًا، فالشىء إذا أُبهم تطلعت إليه النفس واشتاقت لبيانه، فإذا ما جاء البيان صادف نفسًا يقظة متطلعة فيتمكن فيها فضل تمكن...

ومما يلحظ فى هذا الدعاء – أيضا – تكرار لفظ (اللهم) مرتين، وهو تكرار يتناسب مع مقام الدعاء؛ ذلك أن تكرار هذا الدعاء فيه فضل تمكين له وتأكيد عليه، وفيه مزيد من الإلحاح، وتقوية الرغبة فى الإجابة، كما أنه دليل على الضراعة والخشوع والخشية.

لقد استجاب الله لتطلعات نبيه ودعائه المتكرر بالسُّقيا: (اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا) فأرسل السماء عليهم مدرارًا، واستجاب الله لتطلعات نبيه وندائه المتكرر برفع الضرر: (اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ، وَالْجِبَالِ، وَالْآجَامِ، وَالظِّرَابِ، وَالْأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ) فتوقف السحاب عن الإمطار فوق المدينة، وانحاز عنها حتى خرج الناس يمشون فى الشمس.

إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عندما يرفع يديه متجهًا لربه مُكررًا دعاءه مُلحًّا فى طلبه إنما يعلمنا المخرج من الشدائد، وأن لا ملجأ من المحن والشدائد إلا إلى الله، وأن الله يحب عبده اللحوح، وأنه قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه، وأن العبد إذا رفع يديه لخالقه يرجو عطاءه وفضله، أو يأمل رفع ضرر، وتفريج كرب حلَّ به فإن الله – تعالى – لا يرد يديه صفرًا، بل يعطيه حاجته ويكشف عنه كربه، فلله الحمد على مننه وعطاياه.

التكرار والدعاء بالبركة للشام واليمن.

عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِى شَأْمِنَا[1]، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِى يَمَنِنَا)، قَالُوا: وَفِى نَجْدِنَا، قَالَ: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِى شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ

(١) الشام والشأم بالهمز والتسهيل: لغتان.

بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَفِي نَجْدِنَا، فَأَظُنُّهُ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ: (هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ)[١]

نرى فى هذا الحديث الشريف دعاء النبى – صلى الله عليه وسلم – لهذين الإقليمين المشهورين الشام واليمن، ويحتمل أن يراد بهما: البلاد التى فى ناحية الشمال من المدينة والبلاد التى فى ناحية اليَمِن، فهذا أعم من القُطْرين المعروفين، وقد يكون هذا الفهم هو ما دعا المباركفورى أن يقول: "إنما دعا لهما بالبركة؛ لأن مولده بمكة، وهى من اليمن، ومسكنه ومدفنه بالمدينة، وهى من الشام، وناهيك من فضل الناحيتين أن إحداهما مولده، والأخرى مدفنه"[٢].

وإذا صح هذا الفهم – وهو صحيح – إن شاء الله – ففى لفظتى (الشام، واليمن) بمعنى: الجهتين مجاز مرسل علاقته الكلية، فقد أطلق (الشام) وهو إقليم كبير يتسع ليضم فى نطاقه مدينة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهى أفضل مُدُنه وأكرمها وأشرفها؛ لكونها مسكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيًّا وميتًا، ولكونها نقطة انطلاق الجيوش الإسلامية؛ لنشر دين الله – تعالى –

وأطلق (اليمن) وهو إقليم كبير يتسع ليضم فى نطاقه (مكة المكرمة)، وهى أفضل مدنه وأشرفها وأكرمها؛ لأن بها أول بيت وضع للناس، ولأنها أم القرى، وبلد المشاعر، ومقصد الحجاج، ومولد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعاصمة المسلمين المقدسة.

ولنتأمل دعاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا)، لقد نادى ربه (اللَّهُمَّ) بحذف أداة النداء والتعويض عنها بميم مشددة فى آخر المنادى، ولعل فى هذا الحذف تعبيرًا عن شعور النبى – صلى الله عليه وسلم – بقربه من ربه – عز وجل – ثم جاء الطلب (بَارِكْ) وهو أمر أريد به: الدعاء، وقد تقوَّى هذا الطلب وتأكد بالنداء، فهو يشير إلى الافتقار إلى الله – عز وجل – وشدة الحاجة إليه فى مباركة القطرين المذكورين، وقوله: (بَارِكْ) من البركة، وهى الزيادة والنماء وكثرة الخير.

والظاهر فى وجه تخصيص القطرين (الشام واليمن) بالدعاء بالبركة، هو أن طعام أهل المدينة مجلوب منهما، وقد كان لقريش رحلتان فى العام: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة

---

(١) صحيح البخارى، ك/ الفتن، ب/ قول النبى – صلى الله عليه وسلم – الفتنة من قبل المشرق، جـ٦، ص٢٥٩٨.

(٢) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى لمحمد بن عبد الرحمن المباركفورى، جـ٩، ص٤٠٣.

الصيف إلى الشام، وهاتان الرحلتان يمثلان بما يجلبان من الطعام والتجارة رافدًا من روافد الحياة لأهل مكة والمدينة، فلا غرو أن يخص النبى – صلى الله عليه وسلم – هاتين الجهتين بالدعاء لهما بمزيد من الخير وكثرة النماء وعموم البركة.

لقد كرر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هذا الدعاء: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِى شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِى يَمَنِنَا)؛ استدرارًا لرحمة الله – تعالى – وطلبًا لزيادة الخير لهذين القطرين، والتكرار هنا يتناسب ومقام الدعاء، لأن تكرار الدعاء فيه فضل تمكين له وتأكيد، وفيه مزيد من الإلحاح وتقوية الرغبة فى الإجابة، كما أنه دليل على الضراعة والخشية وطلب الفضل ممن بيده الفضل – سبحانه وتعالى – يقول المباركفورى: "وتكرار الدعاء فى حق الشام واليمن بقوله: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِى شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِى يَمَنِنَا) للتأكيد"(١).

ومما يَقْوَى به التكرار طلبا للبركة للشام واليمن تلك الإضافة فى (شأمنا ويمننا)، فقد أضاف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هذين القطرين إلى (النون) التى تجمع النبى – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه الكرام، وتلك الإضافة تتضمن تعظيم المضاف، لأن الإضافة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصحبه الكرام تشريف ما بعده تشريف، وتكريم ما بعده تكريم، وتلك الإضافة التشريفية تتناسب تمام التناسب مع التكرار فى مقام الدعاء؛ لأن فيها استعطافًا، واستدرارًا لبركة الله – تعالى – وخيراته على هذين القطرين العظيمين بإضافتهما لخير البشر – صلى الله عليه وسلم –، وخير الأصحاب – رضوان الله عليهم أجمعين –

أما قول الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – : (يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَفِى نَجْدِنَا) ففيه حذف تقديره: يا رسول الله، قل: وبارك لنا فى نجدنا(٢)، والحذف هنا يتناسب مع لهفتهم

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لأبى الحسن عبيد الله بن محمد المباركفورى، نشر إدارة البحوث العلمية والدعوة الجامعية السلفية، ط/ الثالثة، الهند ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م، جـ٩، ص٣٥٣.

(٢)أصل النجد: ما ارتفع من الأرض، وهو خلاف الغور فإنه ما انخفض من الأرض، وتهامة كلها من الغور، ومكة من تهامة، وقد اختلف أهل العلم فى المراد بنجد، فقال ابن حجر نقلا عن الخطابى: نجد من جهة المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها، وهى شرق أهل المدينة. فتح البارى:جـ١٣، ص٤٧، وأنا أميل إلى أنها نجد الجزيرة العربية، وهى الواقعة فى المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية، وهى التى تشمل الرياض وما حولها؛ لأنها جغرافيا هى الواقعة شرق المدينة، وهى المسماة قديما ب(نجد).

المتشوقة إلى أن يشمل دعاء النبى – صلى الله عليه وسلم – نجدهم، وفى إضافتها – نجد – إليهم إشارة إلى استحقاقها لهذا الدعاء بوصفها نجد أصحابه وأتباعه، ومن الملاحظ أن الصحابة كلما طلبوا من النبى – صلى الله عليه وسلم – أن يدعو لنجد دعا للشام واليمن حتى قال فى الثالثة: (هُنَاكَ الزَّلاَزِلُ وَالْفِتَنُ ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ[١] الشَّيْطَانِ).

إن تكرار الدعاء (للشام واليمن) دون (نجد) يشير إلى أفضلية القطرين (الشام واليمن) على (نجد) وبخاصة، أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قد علل عدم الدعاء لـ(نجد) بأنها أماكن الزلازل والفتن، ومن استقرأ التاريخ علم صدق قول النبى – صلى الله عليه وسلم – وأن الزلازل والفتن وقعت من أيام الصحابة إلى يومنا هذا، ومصدرها دائما الجهة الشرقية التى أشار إليها النبى – صلى الله عليه وسلم – فمن (نجد اليمامة) ظهرت فتنة الردة على يد مسيلمة الكذاب، وسجاح التميمية، وظهرت الفرق الضالة، كالرافضة والباطنية والقدرية والجهمية وغير ذلك من مثيرى الفتن والحروب...

والحديث لا يعنى ذمًّا لـ(نجد) ولا ذمًّا لكل من سكنها، بل إن من كان من أهلها وصبر على ما يحصل فيها من ابتلاء ونجَّاه الله – تعالى – من الفتن التى تحصل فهو من خير الناس – إن شاء الله – تعالى – وإن أعلام الأمة من مقرئين ومُحدّثين وفقهاء وزهاد وأئمة فى كل أبواب البرِّ من تلك البلاد لا يُحصون كثرة.

التكرار والدعاء بالمغفرة للمحلقين.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم–: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ)، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: (وَلِلْمُقَصِّرِينَ)[٢].

---

(١) قال الداودى: يحتمل أن يريد بالقرن: قوة الشيطان، وما يستعين به على الاضلال، وهذا أوجه، وقيل: إن الشيطان يقرن رأسه بالشمس عند طلوعها؛ ليقع سجود عبدتها له...، وقال الخطابى: القرن: الأمة من الناس يحدثون بعد. فتح البارى، ج١٣، ص٤٦، وينظر: شرح صحيح البخارى لابن بطال، مكتبة الرشد، السعودية، جـ٣، ص٢٨.

(٢) صحيح مسلم، ك: الحج، ب: تفضيل الحلق على التقصير،وجواز التقصير، جـ٢، ص٩٤٦. ، وينظر: صحيح البخارى، ك: الحج، ب: الحلق والتقصير عند الإحلال، جـ٢، ص٧٣٢.

إن تكرار استغفار رسول الله – صلى الله عليه وسلم– للمحلقين ثلاثًا وللمقصرين مرة واحدة جرى يوم الحديبية حين صُدّ عن البيت، فتوقف من توقف من الصحابة عن الإحلال؛ لما دخل عليهم من الحزن؛ لكونهم مُنعوا من الوصول إلى البيت مع اقتدارهم فى أنفسهم على ذلك، فخالفهم النبى – صلى الله عليه وسلم– وصالح قريشًا على أن يرجع من العام المقبل.....، فلما أمر النبى – صلى الله عليه وسلم– أصحابه بالإحلال توقفوا، فأشارت عليه أُم سلمة – رضى الله عنها – أن يحل هو – صلى الله عليه وسلم– قبلهم، ففعل، فتبعوه، فحلق بعضهم، وقصَّر بعضهم، وكان من بادر إلى الحلق أسرع إلى امتثال الأمر ممن اقتصر على التقصير(١).

تلك جملة من المعارف المتصلة بمقام الحديث الذى ورد فيه، ومعقد المعنى فى الحديث قائم على تكرار الدعاء بالمغفرة للمحلقين، والدعاء للمقصرين مرة واحدة، أما الغرض من هذا التكرار فهو: الإلحاح فى طلب المغفرة للمحلقين والتأكيد على طلب الاستجابة لدعائه – صلى الله عليه وسلم– والتكرار من أنسب ألوان البيان بمقام الدعاء والاستغفار، فلهفة الداعى وتشوقه للاستجابة والقبول تستدعى منه تكرار ما يطلب وإعادة ما يريد؛ تأكيدًا على الإلحاح فيما يرغب، ومن هنا فمقام الدعاء والاستغفار أكثر المقامات استدعاء لفن التكرار؛ فهذا المقام بالتكرار أولى وأليق.

وتكرار الدعاء للمحلقين دون المقصرين يشير إلى أفضلية الحلق على التقصير، ووجه الأفضلية: أن الحلق أبلغ فى العبادة، وأبين للخضوع والذلة، وأدل على صدق النية، والذى يُقَصّر يُبقى على نفسه شيئًا مما يُتزين به بخلاف الحالق فإنه يشعر بأنه ترك ذلك لله – تعالى – (٢).

ويشير الإمام أبو جعفر الطحاوى إلى أن تفضيل المحلقين على المقصرين بتكرار الدعاء لهم لا يرجع لفضل للحلق على التقصير، ولكن لأن السبق إلى معرفة الأشياء يوجب الفضيلة للسابقين إليها، كما وجب لأبى بكر – رضى الله عنه – بسبقه الناس إلى تصديقه

---

(١) ينظر: فتح البارى، جـ٣، ص٥٦٤، وشرح الزرقانى على الموطأ، لمحمد بن عبد الباقى الزرقانى ، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، جـ٢، ص٤٦٤، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، جـ٩، ص٢٥٥.

(٢) ينظر: فتح البارى، جـ٣، ٥٦٤.

رسول الله – صلى الله عليه وسلم– على إتيانه بيت المقدس من مكة ورجوعه منه إلى منزله بمكة فى تلك الليلة حتى سُمّى بذلك الصديق، وإن كان المؤمنون جميعًا يشهدون لرسول الله – صلى الله عليه وسلم– بمثل ذلك إذا وقفوا عليه.....، فمثل ذلك المحلقون استحقوا الفضيلة على المقصرين بسبقهم إياهم إلى طاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– واقتدائهم به، وأخذهم ما آتاهم إياه، وانتفاء الشك من قلوبهم فى ذلك، وعلمهم أن ما عاينوا منه أولى بهم مما قد تقدم علمهم به من أن الحلق أو التقصير لا يكون إلا بعد أدائهم المناسك[١]، ويقول الإمام البغوى: "وإنما قدم النبى – صلى الله عليه وسلم– المحلقين فى الدعاء مع أن التقصير جائز؛ لمبادرتهم إلى طاعته حين أمر"[٢].

ولنعد إلى نص دعاء النبى – صلى الله عليه وسلم–: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ)، أى: يا الله، حُذفت أداة النداء (يا) وجاءت الميم المشددة عوضًا عنها، وحذف أداة النداء يوحى بقرب المنادَى من المنادِى، والله – عز وجل – هو القائل: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي، وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)[٣]، وقوله: (اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ) أمر أريد به: الدعاء؛ لأنه من الأدنى إلى الأعلى.

أما قول الصحابة: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ) فهو استعطاف للمقصرين، بُدِئ بالنداء؛ تنبيهًا ولفتًا، و(الواو) عاطفة على محذوف تقديره: قل وللمقصرين، أو قل: واغفر للمقصرين، وهذا ما يُسمّى بالعطف التلقينى، يقال: سأكرمك، فتقول: وزيدًا؟ أى: وتكرم زيدًا، تريد تلقينه بذلك، فيكون خبرًا فى معنى: الطلب، وأصل قول الصحابة: قل وللمقصرين، أو قل: واغفر للمقصرين، لكنه عُدل إلى المذكور (وَلِلْمُقَصِّرِينَ)؛ لما فيه من البلاغة، من حيث جَعْلِه تتمة لدعاء النبى – صلى الله عليه وسلم– وأن المقصرين يستحقون الدعاء مثل المحلقين، وأن الصحابة – رضوان الله عليهم – جعلوا أنفسهم كالنائب عن الرسول – صلى الله عليه وسلم– فى إكمال الدعاء للمقصرين، والعدول عن صيغة الأمر للمبالغة فى الثبوت، ومراعاة الأدب فى

---

(١) ينظر: بيان مشكل الآثار لأبى جعفر الطحاوى، ت/ شعيب الأرنؤوط، جـ٣، ص٢١٨.

(٢) شرح السنة للإمام البغوى، ت/ شعيب الأرنؤوط، ط/ الثالثة، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٤٠٢ – ١٩٨٢م، جـ٧، ص٢٠٣.

(٣) البقرة: ١٨٦.

تفادى توجيه صورة الأمر للرسول – صلى الله عليه وسلم- ، كما أن فى قولهم: (وَلِلْمُقَصِّرِينَ) من الاختصار الواقع موقعه ما يروق كل ناظر[١].

وفى الحديث رواية لمسلم عن ابن عمر – رضى الله عنه – لفظ الدعاء فيها: (رَحِمَ اللّه الْمُحَلّقِينَ)[٢] بلفظ (الرحمة)، وفى الجمع بين رواية ابن عمر ورواية أبى هريرة يقال: إن النبى – صلى الله عليه وسلم- دعا مرة بالمغفرة، ومرة بالرحمة، وهما متلازمان؛ لأن المغفرة تدخل فى الرحمة دخول الخاص فى العام، لأن الرحمة هى: جلب المنافع ودفع المضار، أما المغفرة فهى: دفع المضار، فالرحمة أشمل وأعم من المغفرة، وبِكلٍّ دعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم-

ويلحظ فى رواية ابن عمر – رضى الله عنه – (رَحِمَ اللّه الْمُحَلّقِينَ) أنها طلب جاء فى صورة الخبر، وعدول النبى – صلى الله عليه وسلم- عن صيغة الطلب: اللهم ارحم المحلقين، إلى صيغة الإخبار بالماضى الدال على تحقق الوقوع: (رَحِمَ اللّه الْمُحَلّقِينَ) فيه تفاؤل بالإجابة، وإظهار لحرصه – صلى الله عليه وسلم- على تحقق الإجابة، ونزول الرحمة بالصحابة – رضوان الله عليهم – إدخالا للسرور عليهم، وإثابة لهم على مسارعتهم فى طاعة رسولهم وامتثالهم لأمره.

ومهما يكن من أمر ففى تكرار دعائه – صلى الله عليه وسلم- بالمغفرة أو الرحمة للمحلقين ما يشير إلى أفضليتهم؛ لأنهم سارعوا بالامتثال والطاعة، وفيه أيضا ما يشير إلى أفضلية الحلق على التقصير؛ لتكريره – صلى الله عليه وسلم- الدعاء للمحلقين، وترك الدعاء للمقصرين فى المرة الأولى والثانية، مع سؤالهم له ذلك.

إن المحلقين حلقوا وهم موقنون كل اليقين بأن هذا هو الحق، وأن هذا هو الحكم، وأن حق الله ورسوله عليهم هو الامتثال فامتثلوا، أما المقصرون فلم يطمئنوا لذلك، فكأنهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى، والمقصر – كما يقال – مُقَصِّرٌ، إذن ليسوا سواء، وفرق بين الذى يُقبل على العمل إيمانًا ويقينًا، وبين الذى يُدفع إليه دفعًا، فالحسنات تتضاعف بحسب ميزان اليقين فى قلب المؤمن.

---

(١) ينظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، جـ٩، ص٢٥٦.

(٢) صحيح مسلم: ك/ الحج، ب/ تفضيل الحلق على التقصير،وجواز التقصير، جـ٢، ص٩٤٦.

ومن دلائل أفضلية المحلقين على المقصرين أن النبى – صلى الله عليه وسلم– حلق رأسه، وعندما أراد أن يدعو للمقصرين قال: (وللمقصرين)، فأتى بالواو إشارة إلى أنهم تبع للمحلقين، ولم يقل: اللهم اغفر للمقصرين، أو رحم الله المقصرين، ومعلوم أن تكرار العامل أبلغ من العطف بدون ذكر العامل، كما يشهد لهذا قول الله – تعالى – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ....)[1]، فهذا يدل دلالة واضحة على أن الحلق أفضل، فالنبى– صلى الله عليه وسلم– كرر الدعاء لمن وافقه فى فعله، وقَصَر بمن قَصّر.

التكرار والدعاء بالهلاك على مجرمى قريش

عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَجَمْعُ قُرَيْشٍ فِي مَجَالِسِهِمْ إِذْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمُرَائِي؟ أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى جَزُورِ آلِ فُلَانٍ، فَيَعْمِدُ إِلَى فَرْثِهَا وَدَمِهَا وَسَلَاهَا، فَيَجِيءُ بِهِ، ثُمَّ يُمْهِلُهُ حَتَّى إِذَا سَجَدَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَثَبَتَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سَاجِدًا، فَضَحِكُوا حَتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الضَّحِكِ، فَانْطَلَقَ مُنْطَلِقٌ إِلَى فَاطِمَةَ – عَلَيْهَا السَّلَام – وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى، وَثَبَتَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سَاجِدًا حَتَّى أَلْقَتْهُ عَنْهُ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَسُبُّهُمْ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الصَّلَاةَ قَالَ: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، ثُمَّ سَمَّى: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَوَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ: –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأُتْبِعَ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ لَعْنَةً[2].

---

(١) النساء: ٥٩، لم يقل – تعالى – وأطيعوا أولي الأمر منكم؛ لأن طاعة أولي الأمر تبعية وليست مستقلة، وإنما هي تابعة لطاعة الله وطاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – فأولي الأمر ليس لهم طاعة مستقلة ولكن طاعتهم تبعية بحسب طاعتهم لله ولرسوله – صلى الله عليه وسلم – . كما أن طاعة أولي الأمر ليست بنفس منزلة طاعة الله ورسوله، ومن المحتمل التنازع بين أولي الأمر والرعية، ينظر: روح المعانى للألوسى، دار الكتب العلمية، بيروت،جـ٣، ص٦٣.

(٢) صحيح البخارى: ك الصلاة، ب المرأة تطرح عن المصلى شيئا من الأذى، جـ١، ص١٩٤، حديث رقم٤٩٨، وصحيح مسلم ك الجهاد والسير، ب ما لقى النبى – صلى الله عليه وسلم – من أذى المشركين والمنافقين، جـ٣، ص١٤١٨، حديث رقم١٧٩٤، وسنن النسائى بأحكام الألبانى، ك الطهار.ة، ب فرث ما يؤكل لحمه يصيب الثوب، جـ١، ص١٦١، حديث رقم٣٠٧

يصور الحديث الشريف موقفًا من مواقف عتاة قريش مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقد بلغ استهزاؤهم به مبلغه حين رأوه قائما يصلى عند الكعبة فاغتاظوا لأنه يكاشفهم بعبادته التى سفّه بها أحلامهم وسبَّ آلهتهم، وشقّ بها عصا الطاعة.

لقد دار بينهم هذا الحديث: (أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمُرَائِي) إنه استفهام مفعم بالكثير من المعانى، فالاستفهام يقررهم بالنظر إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – متلبسا بصلاته، وفى الاستفهام أمر وحثٌّ على ذلك النظر، وكأن قائلهم يقول: انظروا إلى هذا المرائى، وقد جاء أمره فى صورة الاستفهام؛ لأن فى ذلك إغراء للمخاطبين، وحثًّا لهم على الاستجابة وقبول الأمر، والاعتناء بهذا الحدث الجلل، والاهتمام بمعالجته، كما أن جملة الاستفهام يشع منها معنى التحقير والازدراء لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – يبدو هذا واضحًا فى استعمالهم لاسم الإشارة الموضوع للقريب (هذا)، وفيه إعلان عن رفضهم لدعوته، وأنه لا يليق به أن يتحداهم بهذه الطريقة، فيصلى عند الكعبة على مرأى منهم؛ لأنه فى نظرهم – حاشاه – صلى الله عليه وسلم – أدنى منزلة من أن يجاهرهم بدينه وعبادته.

ثم تأمل هذا الاستفهام: (أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى جَزُورِ آلِ فُلَانٍ فَيَعْمِدُ إِلَى فَرْثِهَا وَدَمِهَا وَسَلَاهَا، فَيَجِيءُ بِهِ، ثُمَّ يُمْهِلُهُ حَتَّى إِذَا سَجَدَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ) إن القائل لم يتردد ولم يتلعثم فى إبداء اقتراحه الساخر ومؤامرته الدنيئة، إنه باستفهامه هذا يشوقهم لهذا الفعل، ويرغبهم فيه، ويستميلهم ليتنافسوا فى إنجازه، وكأنه يقول: أيكم يحظى بشرف تنفيذ هذا الاستهزاء الذى يشفى صدورنا؟ وأيكم يتميز عن غيره بإتيان هذا الفعل الذى ينتصر فيه للآلهة؟ وهذا ما تفيده (أى) الاستفهامية التى يؤتى بها لتمييز أحد المتشاركَيْن أو المتشاركِين فى أمر يعمهما أو يعمهم[١]، وبما أن (أى) جزء مما تضاف إليه، فإضافتها إلى المعرفة هنا تفيد السؤال عن الاسم دون الصفة[٢].

---

(١) ينظر: الأمالى لابن الشجرى، مكتبة الخانجى، القاهرة، جـ١، ص٤٠١، اللمع فى العربية لابن جنى، عالم الكتب، بيروت، ص٢٩٦.

(٢) ينظر: المقتضب للمبرد، جـ٢، ص٢٩٣، التبصرة والتذكرة للصيمرى، جـ٣، ص٤٧٩، الأمالى لابن الشجرى، جـ٣، ص٤٠، الأشياه والنظائر للسيوطى، جـ٢، ص٥٢٣، مفتاح العلوم للسكاكى، ص١٤٧، شروح التلخيص، جـ٢، ص٢٨٣، وما بعدها.

وانظر إلى ما يحكيه الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – : (فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَثَبَتَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سَاجِدًا، فَضَحِكُوا حَتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الضَّحِكِ) يا لهول المؤامرة الدنيئة التى انبعث أشقى القوم لتنفيذها، و(انبعث) فعل مطاوع من (بعث)، تقول: بعثته فانبعث، وهذا يشير إلى سرعة نهوض هذا الأشقى بالقيام بما شُوِّق لفعله؛ رغبة منه فى أن يكون المميز عن جلسائه؛ سبقًا لهذا الفعل، والأشقى هنا كما ذكر البدر العينى[١] هو (عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ) غير أن ابن مسعود عرفه بالإضافة (أَشْقَاهُمْ) تحقيرًا له؛ لأن إضافته لهؤلاء المستهزئين برسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحقير ما بعده تحقير، ومما زاده تحقيرًا وضع صفته فى قالب التفضيل (أَشْقَاهُمْ)، فهو أكثرهم حقارة، وأعظمهم شقاء.

لقد نهض أشقاهم بهذا العمل فأتى بـ(فرث الجزور) وهو الروث ما دام فى الكرش أو المعى[٢]، وأتى بدمها و(سلاها) وهى الجلدة الرقيقة التى يكون فيها الولد من المواشى[٣]، وهى المشيمة من بنى آدم، وأمهل النبىَّ – صلى الله عليه وسلم – حتى إذا سجد وضع ذلك بين كتفيه، الأمر فى نظر ابن مسعود – رضى الله عنه – مُخجل، ومستفذ، ومؤلم، ولكنه لم يستطع فعل شىء؛ خشية من الطغاة الجبارين، والأمر بالنسبة لهؤلاء مضحك بل لقد وصل بهم الضحك إلى غاية فقدوا معها السيطرة على أجسادهم فمال بعضهم على بعض ضحكًا واستهزاء وسخرية، وثبت النبى – صلى الله عليه وسلم – ساجدًا حتى أُخْبِرَت فاطمة – رضى الله عنها – فأماطت الأذى عن أبيها – صلى الله عليه وسلم – وأقبلت على المستهزئين تسبهم.

تلك جملة من المعارف تشكل جانبا من جوانب مقتضيات الحال التى دعت النبى – صلى الله عليه وسلم – عندما فرغ من صلاته أن يبادر بالدعاء على قريش: (اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، ثُمَّ سَمَّى: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ).

---

(١) عمدة القارى: جـ٧، ص٢٩٣.

(٢) لسان العرب: مادة (روث).

(٣) الصحاح فى اللغة للجوهرى: مادة (سلا).

إن ما حَدَّثَنا به الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – عن مؤامرة هؤلاء المستهزئين وسخريتهم من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لحظة سجوده لربه أمام بيت الله الحرام لهو أدعى المقتضيات للدعاء على المشركين، وبخاصة أنها – كما فى بعض روايات الحديث – أول دعوة دعاها النبى – صلى الله عليه وسلم – على قريش، لقد بلغ السيل الزبى[١]، وبلوغ استهزائهم مداه فى تلك الواقعة استدعى منه – صلى الله عليه وسلم – أن يدعو عليهم بالهلاك.

ومقام الدعاء، ومقتضى الحال فى تلك الواقعة استدعى تكرار الدعاء على قريش ثلاث مرات: (اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ)؛ إلحاحًا فى الدعاء على قريش بالهلاك، واستعجالا للإجابة، والغرض من (التكرار) هو التأكيد على الاستجابة.

إن التكرار هو الذى أسعف النبى – صلى الله عليه وسلم – فى هذا المقام، ولبَّى ما يعتلج فى صدره من ضيق وغيظ على هؤلاء الذين تجاسروا على شخصه حال عبادته بأفظع أنواع السخرية، وأحقر ألوان الكيد والاستهزاء، فلم يصونوا للإنسانية حرمة، ولا للعبادة حمى، ولم يحفظوا للكعبة وقارًا، إنهم تخطوا كل حدود الإنسانية، مما جعل النبى – صلى الله عليه وسلم – يشتد حنقًا عليهم، وتطلعًا للانتقام منهم، فكان تكرار الدعاء عليهم وسيلة بيانية مسعفة وشافية، تنسجم تمامًا مع مقام الدعاء عليهم بالهلاك.

ولنتأمل دعاء النبى – صلى الله عليه وسلم – لقد دعا على قريش (ثلاثا)؛ تأكيدًا على استعجال الإجابة، وإلحاحًا فى طلب الهلاك لهم، ثم خص سبعة منهم سماهم بأسمائهم: (اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ)، وهذا نوع من أنواع الإطناب يُسمى عند البلاغيين ب(ذكر الخاص بعد العام)، وهو: "أن يُذكر الخاص أولا داخلا فى عموم جنسه ثم يذكر ثانيًا وحده تعظيمًا له وتنويهًا بشأنه"[٢]

---

(١) الزُّبى: جمع زُبية، وهى حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده، وأصلها الرابية لا يعلوها الماء، فإذا بلغها السيل كان جارفا مجحفا، يضرب هذا المثل لما جاوز الحدّ، ينظر: مجمع الأمثال للميدانى، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ ه ١٩٨٧م، جـ١، ص١٥٨.

(٢) ينظر: من بلاغة النظم العربى، دراسة تحليلية لمسائل علم المعانى، للدكتور/ عبد العزيز عبد المعطى عرفة، ط/ عالم الكتب، بيروت، ط/ ثانية، ١٤٠٥ه – ١٩٨٤م، جـ٢، ص٢٣٨.

تلك صورة من صور الإطناب تتجلى فيها روعة الأداء البيانى وجودة النسق التعبيرى فى أبهى حلة وأجمل زينة، وذلك حينما يُفرد الخاص بالذكر من بين الجنس العام، فقد حصل ذكره مرتين: مرة فى سياق العموم، وأخرى فى سياق الخصوص، وفى ذلك لفت إلى قيمته وبيان رتبته، والنكتة البلاغية التى تُسْتَشَفّ من وراء ذكر الخاص بعد العام هى: التنبيه على فضل الخاص حتى كأنه ليس من جنس العام، تنزيلا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات، فكأن هذا الخاص لرفعته وفضله قد تميز عما قبله وأصبح مغايرًا له، ويكون ذلك بغرض إظهار الاهتمام بالخاص والتنويه بشأنه(١)، ومن أمثلة هذا النوع فى القرآن: قول الله – تعالى – : (حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ)(٢)، فقد ذكر الخاص: (الصَّلَاةِ الْوُسْطَى) بعد العام: (الصَّلَوَاتِ) مع أن الصلاة الوسطى داخلة فى عموم الصلوات؛ وذلك بقصد بيان أهميتها، وإعلاء شأنها، وضرورة المحافظة عليها.

وليست النكتة فى ذكر الخاص بعد العام: التنبيه على فضل الخاص وبيان شرفه فقط، وإنما قد تكون النكتة فى ذكر الخاص بعد العام: بيان زيادة قبحه، وسوء فعله، وعظيم جرمه، ومنه هذا الحديث الذى نحن بصدد بيانه، فقد دعا النبى – صلى الله عليه وسلم – على الخاص: (عَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ) بعد دعائه على العام (قريش)؛ لزيادة قبحهم، وسوء فعلهم، وعظيم جرمهم، ومن هنا فإن الدعاء على هؤلاء السبعة، وذكرهم بأسمائهم بعد دخولهم فى جملة قريش المدعو عليها، إنما كان لِتَمَيُّزِهم عن سائر القرشيين بشدة الطغيان، ولجرأتهم على السخرية من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والاستهزاء به حال تلبسه بصلاته، هذا فضلا عن أنهم قادة الناس، وسادتهم، بأمرهم تأتمر قريش، ومن خشيتهم يحجم الكثير عن الإسلام، ومن هنا استحقوا أن تصيبهم دعوة النبى – صلى الله عليه وسلم – مرتين: مرة وهم فى زمرة قريش، ومرة منفردين بأشخاصهم وأسمائهم؛ جزاء وفاقًا.

---

(١) ينظر: الإيضاح: جـ٢، ص١٣٥، شروح التلخيص: جـ٣، ص٢١٦، والإتقان فى علوم القرآن، للسيوطى، جـ٢، ص٧١، وشرح عقود الجمان للسيوطى: ط/ الثانية، مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م، جـ٢، ص٢٤١، والإطناب أنواعه وقيمته البلاغية، للدكتور/ محمود شاكر القطان، ص٣٦.

(٢) البقرة: ٢٣٨.

ولم يمض الكثير من الوقت حتى استجاب الله – تعالى – دعاء نبيه، واقتص له من هؤلاء الطغاة المستهزئين، يقول ابن مسعود – رضى الله عنه – : (فَوَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ)، إن هؤلاء تمادوا فى طغيانهم فلم يُرج إيمانهم، فلذلك دعا عليهم النبى – صلى الله عليه وسلم – بالهلاك، فأجاب الله – تعالى – دعاءه، وعجل عقوبتهم فى الدنيا، وكانت عقوبتهم من جنس عملهم، يقول ابن رجب: "إن هؤلاء تواطئوا على وضع (فرث الجزور) على ظهره فى السجود، فما مضى إلا يسير حتى قُتلوا ، وسحبوا إلى القليب فى يوم شديد الحر، فخرج (فرث) كل منهم وحشوته من بطنه، وكان ذلك جزاء وفاقًا"(١).

وكلام ابن مسعود – رضى الله عنه – فى أنه رآهم صرعى فى القليب محمول على الأكثر، بدليل أن (عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ) لم يقتل ببدر، بل حمل منها أسيرًا، وقتل صبرًا قبل دخول النبى – صلى الله عليه وسلم – المدينة بثلاثة أميال(٢)، وأما (عُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ)، فله قصة طويلة مع النجاشى هلك على إثرها فى أرض الحبشة(٣).

وعبر النبى – صلى الله عليه وسلم – بالخبر: (وَأُتْبِعَ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ لَعْنَةً) فى موضع الإنشاء: (اللهم أتبع أصحاب القليب لعنة)، تفاؤلا بالإجابة، وإظهارًا للحرص والرغبة فى وقوع المعنى الإنشائى وتحقيقه.

إن النبى – صلى الله عليه وسلم – يدعو على أصحاب القليب بأن تتبعهم لعنة الله فى الآخرة بعد إهلاكهم فى الدنيا، وصيغة الأمر هى الدالة على ذلك، لكن النبى – صلى الله عليه

---

(١) فتح البارى لابن رجب، ت/ أبو معاذ طارق بن عوض الله، دار ابن الجوزى، ط/ الثانية، السعودية، ١٤٢٢هـ، ج٢، ص٧٣٢.

(٢) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام، ت/ طه عبد الرءوف، دار الجيل، بيروت، ط/ أولى ١٤١١، ج٣، ص١٩٤، السيرة النبوية لابن كثير، ت/ مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٦– ١٩٧١م، ج٢، ص٤٧٣، السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون، لعلى بن برهان الدين الحلبى، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠، ج٣، ص١٦٥.

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام لشمس الدين الذهبى، ت/ عمر عبد السلام تدمرى، ط/ أولى، ١٤٠٧– ١٩٨٧م، دار الكتاب العربى، بيروت، ج٢، ص١٣٣.

وسلم – عدل عن صيغة الأمر: (اللهم أتبع أصحاب القليب...) إلى صيغة الإخبار بالماضى: (وَأُتْبِعَ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ لَعْنَةً) الدالة على تحقق الوقوع، وكأن دعاءه – صلى الله عليه وسلم – على أصحاب القليب قد استجيب وتحقق، وأصبح خبرًا يخبر به، وهذا دعاء الواثق فى الله – تعالى – وأنه ينصر المظلومين.

المبحث الثانى

بلاغة التكرار فى مقام النهى والتحذير

يُعَدُّ التكرار من أهم وسائل النهى والتحذير، فهو فى النهى أزجر، وفى التحذير أبلغ، والنهى إذا تكرر تقرر وتأكد، والتكرار فى مقام النهى والتحذير يحمل فى ثناياه دلالات نفسية وانفعالية مختلفة تفرضها طبيعة مقام النهى والتحذير، إن التكرار فن أسلوبى له طابع خاص فى إيقاعه المتكرر، وفى بنائه المتتابع، وفى فحواه ومغزاه وبخاصة إذا صدر من أفصح الفصحاء – صلى الله عليه وسلم– بنظمه البديع، وأسلوبه العجيب، الذى إذا تدبره المتدبر وأمعن النظر فيه المتأمل أدرك قوة بيانه وسحر نظمه، وأنه صيغ صياغة عجيبة، ونظم نظمًا فريدًا تألقت فيه كلماته، وتعانقت جمله.

إن البليغ "الذى ينطق بالكلمة فتحسم بها الأمور، وتنقاد لها العقول هو صاحب منطق، وفكر قويم، وحكمة بارعة، وقدرة فذة على إسكات من يجاذبه الرأى، أو يراجعه القول، وكان النبى – صلى الله عليه وسلم– كذلك، مع لطف الخطاب، ولين الجانب، وسجاحة الخُلُق"(١)، وإليك أيها القارئ الكريم بعض نماذج التكرار التى وردت على لسان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فى مقام النهى والتحذير:

التكرار والتحذير من أكبر الكبائر.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْه – قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ – ثَلَاثًا – قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ – وَكَانَ مُتَّكِئًا– فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ(٢).

---

(١) بلاغة الرسول للدكتور/ على محمد حسن العمارى، دار الأنصار بالقاهرة ،ص٣١–٣٢.

(٢) صحيح البخارى: ك/ الشهادات، ب/ ما قيل فى شهادة الزور، جـ٢، ص٩٣٩، وسنن الترمذى، ت/ الشيخ أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ك/ البر والصلة، ب/ عقوق الوالدين، جـ٤، ص٣١٢.

فالنبى – صلى الله عليه وسلم– يعظ أصحابه – رضوان الله عليهم أجمعين – مُبينًا لهم مهلكات الذنوب، وموبقات المعاصى بطريقة التنبيه؛ ليستعدوا لتلقى نبأه بأسماع واعية، ونفوس يقظة، وقلوب متشوقة، وقد افتتح النبى – صلى الله عليه وسلم– تحذيره بهذا الاستفهام (ألا)، وهو مكون من همزة الاستفهام الداخلة على (لا) النافية، وهو تركيب يفيد التقرير بما بعد النفى[١]، وفيه – أيضا – معنى التشويق؛ لأن هدف النبى – صلى الله عليه

(١) للعلماء فيما تفيده الهمزة إذا دخلت على النفى توجيهان. أولهما: التقرير والإيجاب. وثانيهما: الإنكار. يقول الرمانى: "وتكون الهمزة تقريرا أو تحقيقا وذلك إذا دخلت على(ما) أو (لم) أو (ليس)، كقولك: أما أحسنت إليك؟ ألم أكرمك؟ ألست بخير من زيد؟ والجواب: بلى" الرمانى: معانى الحروف ص٣٣، ٣٤.ويقول ابن مالك" (أما) هذه مركبة من همزة الاستفهام و(ما) النافية ، وأفاد تركيبها التقرير والتثبيت. فكأن قائل: أما فعلت؟ قائل:قد فعلت؟" ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجمع الصحيح، بيروت ، عالم الكتب، ٨٧. وإلى مثله ذهب المفسرون، فمثلا يقول الرازى فى قوله تعالى:{أليس الله بكاف عبده}: " ذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك فى النفوس" الرازى: التفسير الكبير: القاهرة، دار الغد العربى جـ١٣ ص٤٤٣، وينظر: تفسير أبى السعود، جـ١ ص٢٧٦، الألوسى: روح المعانى، بيروت ، دار إحياء التراث العربى جـ٢ ص١٦٠، وكذلك ذهب ابن جنى إلى القول بإفادة همزة الاستفهام للتقرير إذا دخلت على النفى، ينظر: الخصائص ، بيروت، دار الهدى، جـ٣ ص٢٦٩، وذهب كثير من البلاغيين إلى القول بأن ذلك من قبيل إنكار ما دخلت عليه الهمزة ، وهم يجعلون مآل القول بأن الهمزة فى مثله للإنكار هو مآل القول بأنها للإيجاب والتقرير: يقول الخطيب" ومن مجىء الهمزة للإنكار نحو قوله تعالى {أليس الله بكاف عبده}، وقول الشاعر: ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أى:الله كاف عبده ، وأنتم خير من ركب المطايا ؛ لأن نفى النفى إثبات ، وهذا مراد من قال: إن الهمزة فيه للتقرير ، أى: للتقرير بما دخله النفى لا بالتقرير بالانتفاء..." القزوينى: الإيضاح ،جـ٢ ص٤٨، وينظر شروح التلخيص جـ٢ ص٢٩٧، وكأن البلاغيين عندما قالوا: إن الهمزة إ ذا دخلت على النفى أفادت الإنكار أرادوا طرد الباب على أن مناط تأثير الهمزة هو مدخولها، وقد دخلت على النفى فى قوله:{أليس الله بكاف عبده} فأفادت إنكار ما دخلت عليه وهو عدم كفاية الله عبده ، وهى حينئذ على بابها إذ إن مدخولها –وهو النفى– هو محل تأثيرها، والقول بأنها للتقرير لا يناسب ما قرروه من أن المقرر به يجب أن يلى الهمزة لأن الذى يلى الهمزة هنا هو النفى ، والهمزة ليست لتقريره بل لتقرير ما بعده وهو كفاية الله عبده.

يقول التفتازانى:" {أليس الله بكاف عبده}أى: كاف له؛ لأن إنكار النفى نفى له ونفى النفى إثبات،=

وسلم- من وراء هذا الاستفهام: ترغيب المخاطبين، واستمالتهم، وتشويقهم إلى معرفة أكبر الكبائر، ولا شك أن هذا الاستفهام التقريرى التشويقى ينبه المخاطبين، ويشغل فكرهم، ويشعل

=وهذا المعنى مراد من قال: إن الهمزة فيه للتقرير ، أى: لحمل المخاطب على الإقرار بما دخله النفى. وهو: الله كاف، لا بالنفى ، وهو: ليس الله بكاف، فالتقرير لا يجب أن يكون بالحكم الذى دخلت عليه الهمزة بل بما يعرف المخاطب من ذلك الحكم إثباتا أو نفيا" التفتازانى: المختصر، جـ٢ ص٢٩٧،، ويعقب العلامة يس قائلا:"قول الشارح(فالتقرير لا يجب.. إلخ) أى: عند القائل: إن الهمزة فى الآية المذكورة ونحوها للتقرير كالزمخشرى فى بعض المحال لا عند المصنف لأن الهمزة فى هذا عنده للإنكار لا التقرير، وإن قول من قال: إن قول المصنف سابقا: والتقرير بإيلاء المقرربه الهمزة ، لا يصح كليا ، فيه نظر؛ لأن المصنف لا يوافق هذا القائل فى جعل الهمزة للتقرير فى هذا، بل جعلها للإنكار، ولا شك أن المنكر ولى فيها الهمزة .... ، وحينئذ فكلام المصنف يصح كليا على مختاره" حاشية الدسوقى على المختصر ، جـ٢ ص ٢٩٧، ويوضح الإمام السهيلى السرّ فى إفادة الهمزة الداخلة على النفى الإنكار بأن "السر فى ذلك أن المستفهم عن الخبر شاك فيه متردد بين نفيه وإثباته فحقه أن يدخل ألف الاستفهام على لفظ الإثبات؛ لأنه الأصل ثم يعطف عليه فيقال: أقام زيد أم لم يقم؟ فهذا أصل الكلام فإذا عدل عن هذا وأدخل حرف الاستفهام على حرف النفى ترك الوجه الأخف وعدل إلى الأثقل، وترك الأصل وعدل إلى الفرع، علم أنه لم يفعل ذلك إلا منكراً على من رآه يعتقد النفى، إذ يفعل فعل من يعتقده فلذلك بدأ بحرف النفى، فتقول للعاصى: أليس الله يراك؟ لا مستفهما بل مقرراً ومرهبا، وقد فعل فعل من يظن أنه يراه، فلذلك بدأ بالنفى كالمستفهم عن النفى وهو لا يريد إلا التقرير، فلم يتجرد الاستفهام عن المعنى الآخر بل تضمنه... " السهيلى: أمالى السهيلى، القاهرة، مكتبة عمار ص٤٩، فالسهيلى بدء بمعنى الإنكار ثم انتهى إلى التقرير، والبلاغيون يذكرون أن المراد: إنكار الجملة المنفية، وإنكار الجملة المنفية يؤدى إلى تقرير ما بعد النفى وكأنهم يقولون: إن دخول الهمزة على النفى يفيد الإنكار أصالة والتقرير تبعاً، بل إن الدسوقى يصرح بأن أى المعنيين قيل فى هذا التركيب فهو صحيح. إذ يقول: "يصح أن يقال: إن الهمزة للتقرير، كما يصح أن يقال: إنها للإنكار، فى قوله – تعالى-: {أليس الله بكاف عبده}، وقوله:{ألم نشرح لك صدرك}، وقوله: {ألم يجدك يتيماً}، فقد يقال: إن الهمزة للإنكار، وقد يقال: إنها للتقرير، وكلاهما حسنٌ، فعلم أن التقرير ليس يجب أن يكون بما دخلت عليه الهمزة بل بما يعرفه المخاطب من الكلام الذى دخلت عليه الهمزة " حاشية الدسوقى: جـ٢ ص٢٩٩، وبعد عرض ما ذكره العلماء أرى أن دخول همزة الاستفهام على النفى يفيد التقرير والإيجاب أصالة،وأن إنكار النفى غير مقصود بالذات بل هو وسيلة للإثبات على أبلغ وجه وآكده.

رغبتهم فى التعرف على أكبر الكبائر، ويجعلهم فى حالة انتظار وترقب وتطلع، فإذا ما جاء الجواب وقع فى نفوسهم موقعًا؛ لأنه جاء والنفوس له متطلعة، والآذان له مصغية، والقلوب له مترقبة، "والنبى – صلى الله عليه وسلم– يقصد بهذا التشويق إلى أن يُمكِّن لتلك المعانى فى النفوس حتى يشتد الحرص على امتثالها، وتحقيق ما يكمن وراءها من أغراض"(١).

ومما زاد من أهمية النبأ وخطورته، تكرار جملة التنبيه والتشويق: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟) ثلاث مرات، والغرض من هذا التكرار: هو الاهتمام بشأن أكبر الكبائر، والتأكيد على مدى خطورتها، هذا فضلا عن أن النبى – صلى الله عليه وسلم– قال: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ) ولم يقل – مثلا–: ألا أخبركم؛ لأن النبأ – كما يقول أهل اللغة(٢) – أهم من الخبر، وأعظم، وفيه فائدة مهمة ، ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء، وحق الخبر الذى يقال فيه (نبأ) أن يتعرى عن الكذب، ثم الإتيان بصيغة التفضيل بـ(أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ)، إن ما يحذر منه النبى – صلى الله عليه وسلم– ليس بالأمر الهين بل هو قمة الكبائر وأكبرها، ومن هنا تنوعت طرق التشويق لمعرفة أكبر الكبائر فى قوله – صلى الله عليه وسلم–:(أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟) من الاستفهام إلى اختيار الإنباء على الإخبار، ثم الإتيان بصيغة التفضيل، ثم تكرار العبارة كلها ثلاث مرات، وهذا مما زاد من تطلع السامعين لمعرفة هذا النبأ، وحرصهم على الوقوف على معرفة أكبر الكبائر حتى يحققوا ما يكمن وراء التكرار من أغراض.

إن التكرار فى مقام النهى والتحذير من كبائر الذنوب نهج تعليمى تربوى سديد، تفرد به النبى– صلى الله عليه وسلم– وأضفى على المكرَّر ما أكد حرمته فى نفوس السامعين، وتأمل قوله: (أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ) إنه ذنب مخيف، وجرم عظيم تأباه النفوس المؤمنة، والقلوب التى تخشى الله – سبحانه – (٣).

---

(١) التشويق فى الحديث النبوى طرقه وأغراضه، للدكتور/ بسيونى فيود، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط/ أولى،١٤١٤– ١٩٩٣م، ص٨.

(٢) ينظر المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفانى، ت/ محمد سيد كيلانى، ط أخيرة ١٣٨١هـ ١٩٦١م، مصطفى الحلبى، القاهرة.مادة (نبأ)، والفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى، جـ١، ص٥٥٩.

(٣) ينظر الحديث النبوى مصطلحه وبلاغته للدكتور/ الصباغ، ص١٠٠-١٠١.

وبعد أن تهيأ الصحابة – رضوان الله عليهم – واشتاقت قلوبهم، وتطلعت نفوسهم لمعرفة أكبر الكبائر؛ حتى يجتنبوها ، سارعوا فى شوق ولهفة قائلين: (بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ)، وجواب الاستفهام يكفى فيه قولهم: (بلى)، لكنهم زادوا على الجواب جملة النداء: (يَا رَسُولَ اللهِ)، فأتوا بأداة النداء (يا) الموضوعة لنداء البعيد؛ إشارة إلى بعد مكانة النبى – صلى الله عليه وسلم– وسمو منزلته، ونادوه بصفة الرسالة مضافة إلى لفظ الجلالة؛ تعظيمًا له وإجلالا، والإتيان بالنداء عقب حرف الجواب مع عدم الاحتياج إليه، فيه إشارة إلى مدى انتباه الصحابة وشوقهم لمعرفة نبأ النبى – صلى الله عليه وسلم– واستدرارهم لما عنده مما يكشف النقاب عن أكبر الكبائر وأعظمها جرمًا.

وبعد أن تشوق الصحابة، وتهيئوا لتلقى نبأ النبى – صلى الله عليه وسلم– جاء الجواب فى قوله: (الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ – وَكَانَ مُتَّكِئًا– فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ)، ويلاحظ أن هذه الكبائر قد عُطف بعضها على بعض ب(الواو) التى هى لمطلق الجمع بين المتعاطفين[1]، وهى هنا تفيد تشريك تلك الذنوب فى حكم الشارع عليها بأنها أكبر الكبائر، كما يلاحظ – أيضًا – أن النبى – صلى الله عليه وسلم– فى بيانه عن تلك الكبائر قد خص الكبيرة الأخيرة: (أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ) بعدة خصائص، نذكرها فيما يأتى:

الخصوصية الأولى: فعلية عملية تبدت فى جلوس النبى – صلى الله عليه وسلم– (وَكَانَ مُتَّكِئًا) قبل الجلوس، وتلك الخصوصية تشير إلى مدى ما وصل إليه اهتمام النبى– صلى الله عليه وسلم– عندما وصل إلى ذكر تلك الكبيرة، إن تَغَيُّرَ حال النبى – صلى الله عليه وسلم– عند ذكر تلك الكبيرة من وضع الاتكاء إلى وضع الجلوس يصوره لنا جاهر الصوت، متغير اللون، وقد تحفز وتهيأ؛ لأمر عظيم، وخطب جلل.

الخصوصية الثانية: لفظية بيانية تبدو فى الفصل بين المتعاطفين بأدة التنبيه (ألا)، والإتيان بها يشير إلى تحقق حرمة ما بعدها – وهو قول الزور– وتأكيد فظاعته وشدة خطورته.

---

(١) ينظر: رصف المبانى فى شرح حروف المعانى، للإمام أحمد بن عبد النور المالقى، ت/ أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ص٤١٠، والجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى، ص١٥٨.

الخصوصية الثالثة: تكرار العبارة المشيرة إلى شدة حرمة قول الزور: (أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ)، والغرض من هذا التكرار: بيان فظاعة تلك الكبيرة، وتقرير قبحها، وتأكيد حرمتها، وبيان شدة خطرها، لا سيما وأن النبى – صلى الله عليه وسلم – استمر فى تكرار تلك العبارة حتى تمنَّى الصحابة – رضوان الله عليهم – أن يسكت؛ "شفقة عليه، وكراهية لما يزعجه، وفيه ما كانوا عليه من كثرة الأدب معه – صلى الله عليه وسلم – والمحبة له، والشفقة عليه"(١).

إن ما تميزت به كبيرة قول الزور من انتقال مفاجئ من حال الاتكاء إلى حال الجلوس لا ترويحًا من الوضع الأول بل اهتمامًا وتحفزًا وتحذيرًا، والإتيان بأداة التنبيه (ألا)، وتكرار العبارة تكرارًا شُغِل الصحابة عن حصره؛ إشفاقًا ورحمة لَتأكيد بالغ، وتقرير عجيب يجعل قول الزور فوق الشرك بالله، وفوق عقوق الوالدين؛ لما يترتب عليه من المفاسد(٢).

يقول ابن الجوزى: "فإن قيل: كيف عظم شهادة الزور بتفخيم أمرها، وتكرار ذكرها والشرك أعظم؟ فالجواب: أن تعظيم أمر الشرك قد عرف، فأراد تعظيم ما يعرف قدر وقعه، فكرر، كما ذكر عيب قوم لوط بالفاحشة، وقوم شعيب بالتطفيف، وإن كان الشرك أعظم"(٣).

إن شهادة الزور ليست بأكبر جرمًا، ولا بأعظم إثمًا من الإشراك بالله – تعالى – إلا أن النبى – صلى الله عليه وسلم – حرص على أن يكون نهيه وتحذيره منها فى صورة مؤكدة حاسمة فابتدأ العبارة ب(ألا) التى هى للتنبيه على أهمية ما يأتى بعدها، وغَيّر من وضع جسمه الشريف، وكرر، وأكثر التكرار حتى أشفق عليه أصحابه، فقالوا: (لَيْتَهُ سَكَتَ)، وفى رواية: (ليته يسكت)(٤)، ولا يخفى أنهم صاغوا طلبهم فى صورة التمنى؛ إشارة إلى أن سكوته – صلى الله عليه وسلم – وتوقفه عن تكرار تلك الجملة (أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ) أمر مرغوب فيه، تحبه نفوسهم وتميل إليه، لكنه لا يرجى حصوله إما لكونه مستحيلا كما يشير

---

(١) فتح البارى: جـ٥، ص٢٦٣.

(٢) ينظر: الحديث النبوى من الوجهة البلاغية، للدكتور/ عز الدين على السيد، ص83.

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزى، ت/ على حسن البواب، ط/ دار الوطن بالرياض ١٤١٨-١٩٩٧م، جـ١، ص٣٢٣.

(٤) صحيح البخارى: ك/ الشهادات، ب/ ما قيل فى شهادة الزور، جـ٢، ص٩٣٩.

الفعل الماضى (لَيْتَهُ سكَتَ)، وإما لكونه بعيدًا لا يُطمع فى نيله كما تشير المضارعة فى رواية (ليته يسكت)[١].

لقد كانت أمنية الصحابة تصويرًا لهيئة النبى – صلى الله عليه وسلم – وهو يحذر من تلك الكبيرة، وأنه قد بلغ فى التحذير والاهتمام والتفظيع لتلك الكبيرة غاية ظنّ معها الصحابة أن هدوءه وسكوته وعودته إلى حالته الطبيعية أُمنية بعيدة المنال، إن لم تكن مستحيلة، ومن هنا أتوا بأداة التمنى (ليت)؛ تصويرًا لما يجيش فى صدورهم من رحمة وإشفاق على رسولنا – صلى الله عليه وسلم–

إن اهتمام النبى – صلى الله عليه وسلم – بكبيرة قول الزور بتلك الصورة له سرٌّ يشير إليه ابن حجر فى قوله: "وسبب الاهتمام بذلك كون قول الزور أو شهادة الزور أسهل وقعًا على الناس، والتهاون بها أكثر، فإن الإشراك ينبو عنه قلب المسلم، والعقوق يصرف عنه الطبع، وأما الزور فالحوامل عليه كثيرة كالعداوة، والحسد، وغيرهما، فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها من الإشراك قطعًا، بل لكون مفسدة الزور متعدية إلى غير الشاهد بخلاف الشرك فإن مفسدته قاصرة غالبًا"[٢].

إن الناس قد يستهينون بهذا الجرم مع توفر دواعيهم إليه من حقد، وحسد، وعداوة، وعصبية، ورغبة فى التشفى، والانتقام، والإيقاع بالآخرين، وإضاعة حقوقهم، إن الفطرة السليمة تنأى بصاحبها عن الشرك، والطبع الأصيل ينأى بصاحبه عن الإساءة لوالديه، أما قائل الزور أو شاهد الزور فلا عقوبة دنيوية يخشاها، ولا مضرة مادية يتوجس منها، فلم يكن بدّ من المبالغة فى تحذيره، والتأكيد على نهيه وإنذاره.

يقول الدكتور/ على محمد حسن العمارى: "ولعل من أسباب التغليظ فى النهى عن قول الزور، وشهادة الزور أن الإنسان المبتلى بهما قلما يُقلع عنهما؛ فإنهما داءان خبيثان

---

(١) يقول السكاكى:"تقول: ليت زيدا جاءنى، فتطلب غير الواقع فى الماضى واقعا فيه مع حكم العقل بامتناعه، ولبت الشباب يعود، مع جزمك أنه لا يعود، وليت زيدا يأتينى فيحدثنى فى حالة لا تتوقعها، ولا طمع لك فيها...، والقدر المشترك بين الثلاثة: التوقع"، مفتاح العلوم، ط/ مصطفى الحلبى، القاهرة،١٣٥٦-١٩٢٧م، ص١٤٦.

(٢) فتح البارى: ج٥، ص٢٦٣، إرشاد السارى للقسطلانى، جـ٤، ص٣٨٥.

إذا تمكنا من نفس علقا بها علوق الداء المزمن الذى لا يرجى منه برء"[١]

أرأيت كيف استطاع الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يحسن توظيف (التكرار) فى مقام التحذير من الكبائر، والنهى عن اقترافها، والتأكيد على فظاعتها ومفاسدها، إن التكرار فى هذا الحديث وسيلة بيانية لا يقوم غيرها مقامها فى تشنيع تلك الكبائر، وتصوير شدة قبحها وبشاعة جرمها، والتنفير من اقترافها، كل ذلك جاء فى أسلوب بديع، وبلاغة عالية، ونظم فريد يقول فيه الشيخ عبد القاهر: "ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة، ويأتيك منه ما يملأ العين ضربة، حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل، وموضعه من الحذق، وتشهد له بفضل المنة، وطول الباع"[٢].

التكرار والنهى عن صيام الدهر.

عَنْ أَبِى الْعَبَّاسِ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ – رضى الله عنهما – يَقُولُ: بَلَغَ النَّبِىَّ – صلى الله عليه وسلم– أَنِّى أَصُومُ أَسْرُدُ، وَأُصَلِّى اللَّيْلَ، فَإِمَّا أَرْسَلَ إِلَىَّ، وَإِمَّا لَقِيتُهُ، فَقَالَ: (أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ وَلاَ تُفْطِرُ، وَتُصَلِّى اللَّيْلَ؟ فَلاَ تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ لِعَيْنِكَ حَظًّا، وَلِنَفْسِكَ حَظًّا، وَلأَهْلِكَ حَظًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ، وَصُمْ مِنْ كُلِّ عَشْرَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا، وَلَكَ أَجْرُ تِسْعَةٍ). قَالَ: إِنِّى أَجِدُنِى أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ يَا نَبِىَّ اللَّهِ، قَالَ: (فَصُمْ صِيَامَ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السَّلاَمُ –)، قَالَ: وَكَيْفَ كَانَ دَاوُدُ يَصُومُ يَا نَبِىَّ اللَّهِ؟ قَالَ: (كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلاَ يَفِرُّ إِذَا لاَقَى). قَالَ: مَنْ لِى بِهَذِهِ يَا نَبِىَّ اللَّهِ؟ قَالَ عَطَاءٌ: فَلاَ أَدْرِى كَيْفَ ذَكَرَ صِيَامَ الأَبَدِ، فَقَالَ النَّبِىُّ –صلى الله عليه وسلم–: (لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ، لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ، لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ)[٣].

فالحديث الشريف يعالج جانبا من جوانب المغالاة فى العبادة، ويضع نموذجًا لمن تعينهم قوتهم ورغبتهم فى العبادة يتناسب ووسطية الإسلام واعتداله، فهاهو ذا الصحابى الجليل الزاهد الورع التقى العابد: عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – يقص لنا

---

(١) بلاغة الرسول: ص٣٦.

(٢) دلائل الإعجاز: ص٨٨.

(٣) صحيح مسلم: ك/الصيام، ب/النهى عن صوم الدهر لمن تضرر بهن أو فوت به حقا، جـ٣، ص١٦٤.

اجتهاده فى العبادة، حتى إنه أصبح يتابع الصيام، ويقوم الليل حتى شُهر أمره فى ذلك، وضجّ من حاله من لهم عليه حقوق لا يقوى على الوفاء بها؛ لاستنفاد جهده فى صيامه وقيامه.

إنه تجاوز وسطية الإسلام فى الصيام والقيام، وقصَّر فى واجبات أوجبها الشرع عليه مما استدعى تدخل النبى – صلى الله عليه وسلم – موجهًا، ومرشدًا، ومعلمًا، فقال له: (أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ وَلاَ تُفْطِرُ وَتُصَلِّى اللَّيْلَ؟)، وهو استفهام أريد به: التقرير والإنكار والنهى عن الاستمرار فى متابعة الصيام وقيام جميع الليل، ثم أتبعه بالنهى الصريح: (فَلاَ تَفْعَلْ)، ثم ذكر سبب النهى: (فَإِنَّ لِعَيْنِكَ حَظًّا وَلِنَفْسِكَ حَظًّا وَلأَهْلِكَ حَظًّا)، وقد كُرّر فى العبارة قوله: (حَظًّا) والغرض من تكرار هذا اللفظ هو التذكير بمن لهم حقوق على الإنسان، والتأكيد على أداء تلك الحقوق لأصحابها دون إضرار بحق على حساب الآخر.

والتأكيد فى هذه الجمل ليس لأن الصحابى – رضى الله عنه – ينكر شيئًا من تلك الحقوق، أو يشك فى ذلك، ولكن لَمّا رآه النبى – صلى الله عليه وسلم – استنفد قوته ونشاطه فى الصيام والقيام تطوعًا، ولم يُعن بنصيب عينه فى النوم، ونفسه فى الراحة، وأهله فى المعاشرة، وأهمل فى تلك الحقوق، لما رآه النبى – صلى الله عليه وسلم – هكذا نزّله منزلة المنكر الذى يجحد تلك الحقوق، ولا يقر بأن لها نصيبًا فى قوته ونشاطه، فخاطبه خطابه، وألقى إليه الخبر مؤكدًا[١].

ثم تأمل الأمر الصريح الذى أريد به الإلزام والتكليف: (فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ، وَصُمْ مِنْ كُلِّ عَشْرَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا، وَلَكَ أَجْرُ تِسْعَةٍ)، إنها أوامر تُؤسس للوسطية التى تحفظ لكل ذى حق حقه، وتعطى الطامحين فى عظيم الثواب أقصى ما يطمحون بالقليل من العمل الدائم، إن الحسنة بعشر أمثالها وأكثر، ومن يصم من كل شهر ثلاثة أيام ينل ثواب صيام الدهر، إذن فلا داعى لمتابعة الصيام وقيام الليل كله، وبخاصة إذا كان هذا يؤدى إلى التقصير فى واجبات الغير وحقوقهم.

ومع أن النبى – صلى الله عليه وسلم – أرشد عبد الله بن عمرو – رضى الله عنه – إلى ما يصبو إليه من أجر صيام الدهر بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، إلا أن الصحابى الجليل

---

(١) ينظر: الإيضاح بتعليق الصعيدى، ج١، ص٥١.

يرى من نفسه قوة فى المزيد من الصيام، فأشار عليه النبى – صلى الله عليه وسلم – بقمة نماذج الصيام، وهو صيام داود – عليه السلام – حيث (كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلاَ يَفِرُّ إِذَا لاَقَى).

إن الصوم على هذا الوجه لا يُنْهِك الجسد، ولا يضعف البدن عن ملاقاة العدو، بل يستعين الصائم بفطر يوم على صيام يوم، ولا يضعف عن الجهاد وغيره من الحقوق الواجبة عليه، وأيضًا يجد مشقة الصوم فى يوم الصيام؛ إذ الصوم عندئذ لا يصبح عادة له؛ لأن الأمور إذا صارت عادة سهلت مشاقها، وعلى قدر المشقة يكون الأجر.

ثم تأمل قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقد سئل عن صيام الأبد فقال: (لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ، لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ، لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ)، لترى التغليظ فى النهى عن صيام الأبد؛ لأن العبارة المكررة هنا: (لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ) إما أن تكون دعاء على صائم الأبد؛ زجرًا له عن مواصلة الصيام؛ وإما أن تكون إخبارًا، بمعنى: أن من صام الأبد لم يصم؛ لأنه لم يكابد سورة الجوع، وحرّ الظمأ؛ لاعتياده الصيام حتى خف عليه، وأصبح عادة من عاداته، ولم يصبح عبادة يفتقر إلى الصبر على الجهد الذى يتعلق به الثواب، فصار كأنه لم يصم.

وإذا كان المراد بهذه العبارة، (لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ): الدعاء، فيا ويح من أصابه دعاء النبى – صلى الله عليه وسلم – ، وفى ذلك تأكيد على النهى عن متابعة الصيام، وإن كان المراد بهذه العبارة: الإخبار، فيا ويح من أخبر عنه النبى – صلى الله عليه وسلم – بأنه لم يصم – مع صيامه الدهر – لأنه لم يدرك الأجر، والعجب ممن يطلب الفضل فيما نُفِى عنه الفضل على لسان النبى – صلى الله عليه وسلم –.

وأيًّا ما كان المراد بتلك العبارة: (لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ) فإنها تفيد النهى عن صيام الدهر، والتحذير من متابعة الصيام، وتكرار تلك العبارة ثلاث مرات يؤكد النهى، ويقوى الزجر عن متابعة الصيام؛ لما فى ذلك من الإضرار بالنفس، والتشديد عليها، ومنعها من الغذاء الذى هو قوامها وقوتها، ولما فى متابعة الصيام من تضييع للحقوق، وإهمال فيما هو أفضل من صيام التطوع، كقراءة القرآن، والجهاد، وقضاء حق الضيف والضعيف، والأهل والولد.....

إن تكرار تلك العبارة: (لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ) يشير إلى رفق النبى – صلى الله عليه وسلم – بأمته، ورحمته بهم، وإرشاده إياهم إلى ما تصلح به دنياهم وأخراهم، وحثه لهم على

ما يطيقون الدوام عليه، ونهيهم عن الوصال فى العبادة؛ لأنه يفضى – غالبًا – إلى الملل المفضى إلى ترك العبادة، أو التقصير فى الفرائض.

التكرار والتحذير من التهاون فى إسباغ الوضوء.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: تَخَلَّفَ عَنَّا النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – فِي سَفْرَةٍ سَافَرْنَاهَا، فَأَدْرَكَنَا وَقَدْ أَرْهَقَتْنَا الصَّلاَةُ وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: (وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ) مَرَّتَيْنِ ، أَوْ ثَلاَثًا(١).

يقص علينا عبد الله بن عمرو – رضى الله عنه – فى هذا الحديث أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – تأخر عنهم فى بعض أسفارهم، ثم أدركهم وقد كاد وقت الصلاة أن يخرج، فتوضئوا مسرعين، فرأى النبى – صلى الله عليه وسلم – أقدامهم تلوح لم يمسسها الماء، فنادى بأعلى صوته مكررًا: (وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ).

إنَّه حديث الإتقان والجودة، وهل تقوم حضارة بدون إتقان للعمل، وحرص على أعلى مراتب الجودة لكل دقائق العمل في كل مراحله وتفاصيله؟ وهل كُبّت أمتنا وتخلّفت عن ركب الحضارة إلا بعد أن تساهل أبناؤها – أو بعضًا منهم– في ضبط أعمالهم وإتقانها وتحرّي موافقتها التامة لكتاب الله وهدي نبيه – صلى الله عليه وسلم – اللذان يعطيانها هويتها المميزة لها؟ ومادام الأمر كذلك فإنه يستحق إذاً التحذير، والتنبيه، والإنذار، والوعيد، تأمل معي تلك المعاني الخفية لهذا الحديث، فالأعقاب: جمع عقب، وهو مؤخر القدم، والقدمان هما آخر الأعضاء التي يشملها الوضوء، والأعقاب هي آخر شيء في الأقدام..

للوهلة الأولى يظن البعض أنَّ هذا الحديث قاصر في معناه على مسألة فقهية يمكن حصرها في باب من أبواب الطهارة، وعليه فالكثير منا يغلق بابه عن تدبر المعاني العظيمة والمفاهيم الراقية التي تحويها كلمات الحديث والتي تحتاج بحق إلى مصنفات وكتب ودراسات لإبراز ما فيها من دُرٍّ مكنون، وهنا لابد لنا من التأكيد على ضرورة الاستغراق في الدقائق المتعلقة بالحديث، لرؤية الهالة النورانية المحيطة به، واقتفاء شذرات الذهب المتناثرة من حروفه.

---

(١) صحيح البخارى: ك/ العلم، ب/ من رفع صوته بالعلم، جـ١، ص٣٣.

فالحديث ليس مجرَّد أوامر أو نواهٍ أو كلمات جافة مجرَّدة، إنَّه قصة حية تنبض بالحياة، وترانيم يتردد صداها عبر الزمان، وفيوض نورانية تضيء بها الأرواح المؤمنة، رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصدر تحذيرًا، ووعيدًا شديد اللهجة...، فلمن يوجهه؟ وما الجرم الذى ارتكبه أولئك الأطهار؟

هب أنك اعتنيت بغسل كفيك ووجهك وبالغت في الاستنشاق وتحريت وصول الماء لمنابت الشعر وأعلى المرفقين وقطعت شوطًا وأنت تتحرى الدقة في وضوئك، حتى إذا وصلت للمرحلة الأخيرة وغسلت أصابع رجليك، وتحريت تخليل الماء بينها كما فعلت من قبل في أصابع يديك، ثم ماذا؟ ثمَّ تراخت يديك وقصرت همتك عن إتمام ما فعلته على أحسن وجه، وحدثتك نفسك بأنك قد أتممت وضوءك تقريبًا إلا قليلًا، لقد وصلت إلى نهاية المطاف فسمحت لنفسك أن تمرر الماء سريعًا على رجليك دون اعتناء بِدَلْكِهما للتأكّد من وصول الماء إلى ما تبقى من أجزائهما وبخاصة ذلك العقب البارز للوراء..

إنَّه الدّاء الفتّاك الذي يصيب الكثير من أعمالنا حين نبدأ بداية جامحة نتحرى فيها كل مقاييس النجاح والإتقان، ثمَّ ما نلبث أن نصاب بالترهل والكسل والفتور والعجز عن إتمام العمل بالإتقان المطلوب، فتكون النتيجة ثمرة شوهاء، وعمل منقوص، وأساس واهٍ ضعيف لا يمكن أن يبنى عليه بناءٌ يُعتد به.

هذا توجيه نبوي يريد منا أن نتحلّى بإتقان العمل في كل مراحله، ويريد منا أن نتحلى بعزيمة نختم بها العمل كما بدأناه، ويريد منا أن يكون لنا نَفَس طويل نرقب فيه خواتيم أعمالنا كما نرقب بداياتها، فنُعني بالخواتيم أكثر مما نُعني بالبدايات؛ لأن الأعمال بخواتيمها، ونحن أولى بالفوز في نهاية المضمار من الجياد الأصيلة التي تعي أن عليها أن تضاعف جهدها في أواخر السباق لتفوز فيه!!

قد يقول قائل: إنَّ ذلك الأمر يتعلق بجزئية دقيقة فلماذا كل ذلك التهويل والتخويف الذي تحويه كلمات الحديث؟ والجواب أننا نغفل كثيرًا عن البدايات كما أننا نغفل عن النهايات فنهاية الوضوء توصلنا إلى بداية طاعة أعظم وهي الصلاة، ففساد نهاية الوضوء يفسد بدايته ويترتب على ذلك فساده وبطلانه، وذلك يؤدي تلقائيًّا إلى فساد وبطلان ما يُبنى عليه وهو الصلاة فيتضاعف المصاب، وتعظم المصيبة.

إنَّ من دلالات هذا الحديث ترسيخ مكانة الصلاة في النفوس، فإذا كان هذا الوعيد فيمن ترك جُزْءاً من الرِّجل، فكيف بمن ترك الرِجل بكاملها؟ وكيف بمن ترك الوضوء وعدل إلى التيمم بدون عذر؟ وكيف بمن ترك الصلاة والوضوء بالكلية؟ نسأل الله السلامة والعافية.

إن من تحرَّى الإحسان في وضوئه حتى يختمه على خير وجه كان حريّاً به أن يتنبه إلى سِنِي عمره فلا يغترّ بما قدمه من عمل صالح، ويحذر أن يُختم عمره، وحياته إلا على خير خاتمة، وخير عمل.

إن (الويل) في لغة العرب: كلمة عذاب، بمعنى: حلول الشر الهلاك[1]، ذلك الأمر المخيف لم ينذر به النبى – صلى الله عليه وسلم – اليهود، أو النصارى، أو المشركين، بل كان موجهًا لمجموعة من أصحابه المجاهدين؛ تحذيرًا لهم من خطأ وخلل لا يتعلق بالعقيدة، وإنما بسلوك قد يُؤثر على منهج حياتهم، إنَّها مسؤولية القائد حيال أتباعه وجنوده ألا يغفل عن أي خطأ يمكن أن يُؤتى منه الجميع، إنه تَلَمُّس الطبيب الحاذق لمواطن المرض ووصف العلاج الناجع قبل استفحال الداء واستعصائه، وإنَّها بركة الجهاد والخروج في سبيل الله بانكشاف النفوس وطبائعها، فالسفر يسفر، وهو المجال الأرحب والأخصب؛ ليتعرف القائد على مواطن الضعف والقوة عند أتباعه.

هم أصحابه، نعم. هم مجاهدون وضعوا أرواحهم على أكفهم، نعم. ولكن، لا محاباة ولا مجاملة على حساب إتقان العمل وإتمامه وموافقته لما أمِروا به، حتى لو كان ذلك مع خير القرون؛ كي يستقيم البناء، ويصلب العود.. ،لا مجال للقول هنا: إن القوم قد شغلهم الجهاد – ذروة سنام الإسلام – عن إتقان ما هو أدنى منه، لا مجال للعذر: بالتعب والنصب المصاحب للضرب في سبيل الله عن تحري الدقة والكمال في سائر الأعمال، وكذلك لا مجال للعذر: بأن أولئك قلّة بين كثرة ملتزمة، وهل أُتِي المسلمون يوم أُحُد إلا من مخالفة قلّة قليلة لأوامر الحبيب – صلى الله عليه وسلم–؟

ولكن، ومع التحذير والوعيد والتّخويف فإننا لا نُعْدَم أبدًا تلك الرحمة الغامرة من النبى – صلى الله عليه وسلم – تتجلّى في أسلوبه الدعويّ الأرقى والأكمل في معالجة الخلل

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مادة (ويل).

وتصويبه، فالخطاب هنا جاء عامًّا لا يجرح ولا يُحْرج أحدًا، على شاكلة القاعدة التربوية النبوية العظيمة (ما بال أقوام).. فيكفي هنا القول "ويل للأعقاب" ليعرف اللبيب أن أعقابه منها فيستدرك نفسه دون مكابرة أو إصرار على الذنب.

إن القصة واضحة بأن قومًا أساءوا في الوضوء ولم يكن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنه – منهم كما يتضح من رواية أخرى للحديث[١]، ومع ذلك فإنك تجده يضم نفسه معهم؛ تواضعًا، ومبالغة في إنكار الذات.

إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى هذا الحديث يصدر تحذيرًا ووعيدًا شديدًا لمن لا يتوخى إحسان الوضوء، يبدو هذا جليًّا فى لهجته الشديدة، فقد (نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ)، ثم دعا أو أخبر: (وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ) "فمركب (ويل له) يستعمل خبرًا ويستعمل دعاء"[٢]، ثم كرر دعاءه أو إخباره (مَرَّتَيْنِ ، أَوْ ثَلاَثًا)، وهو تكرار يؤكد التحذير والإنذار والوعيد لمن يتهاون فى إسباغ الوضوء.

تُرى، هل سنمرّ على أبنائنا وأهلينا وأصدقائنا وأحبابنا؛ لنعلّمهم ذلك الحديث وخفاياه الثمينة في تحرّي الدقة والإتقان في وضوئنا وصلاتنا وسائر أعمالنا؛ لنسير بأمتنا إلى مدارج العزّ والارتقاء التي أرشدنا إليها حبيبنا المصطفى – صلى الله عليه وسلم –؟

التكرار ونهى الإمام عن الإطالة فى الصلاة.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ – رَضِيَ اللهُ – عَنْهُ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ، فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ: الْبَقَرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ[٣] رَجُلٌ

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: رَجَعْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِمَاءٍ بِالطَّرِيقِ تَعَجَّلَ قَوْمٌ عِنْدَ الْعَصْرِ فَتَوَضَّئُوا وَهُمْ عِجَالٌ فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ وَأَعْقَابُهُمْ تَلُوحُ لَمْ يَمَسَّهَا الْمَاءُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنْ النَّارِ أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ. رواه مسلم: ك/الطهارة، ب/ وجوب غسل الرجلين بكاملهما، جـ١، ص٢١٤.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الناشر : مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج١، ص٩٧.

(٣) (تجوز): خفف، وقيل: انحاز وصلى وحده.

فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا[1]، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ، فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ – ثَلَاثًا – اقْرَأْ: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَنَحْوَهَا[2].

فالحديث يعرض ما حدث من معاذ حين أطال الصلاة إطالة جعلت أحد المأمومين يترك الجماعة ليصلى وحده، فلما حُدّث مُعاذ بذلك رمى الرجل بالنفاق، فلما علم النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بما حدث قال: (يا معاذ، أفتان أنت؟) تأمل هذه العبارة، لقد تكررت ثلاث مرات، وكان تكرارها متسقًا مع مقام النهى والتحذير من تطويل الإمام، ومحققًا نواتج دلالية مستهدفة، هى التأكيد على ضرورة تجوّز الإمام فى صلاته؛ مراعاة لحال المأمومين، وتخفيفًا عنهم.

إن الجملة المكررة هنا تسترعى الانتباه، لقد بدأها النبى – صلى الله عليه وسلم – بالنداء: (يَا مُعَاذُ)، والنداء فيه لفت وتنبيه لمعاذ – رضى الله عنه – حتى يُصغِى السمع لما يُلْقَى إليه، وتأمل كيف جاء النداء بأداة البعد (يا)؛ إشارة إلى بُعد ما فعله معاذ – رضى الله عنه – عن وسطية الإسلام، فعلى الإمام أن يراعي أحوال المأمومين، فلا يشق عليهم بالإطالة في الصلاة؛ إذ قد يكون فيهم من يقع في الحرج؛ لمرضه، أو لضعفه، أو لكبره ... ونحو ذلك بسبب الإطالة، وهذا لا يَعْنِى أن تُخفَّفَ الصلاة تخفيفًا يُؤدي إلى الانتقاص منها، فذلك أيضًا أمر محذور، وقد يؤدي إلى الحرمان من أجر الصلاة.

إن قوله: (يا معاذ) خطاب عتاب، وزجر، وقوله: (أفتان)، أي: مُنفِّرٌ عن الدين، وصادٌّ عنه ، ومُوقِعٌ للناس في الفتنة؛ حيث إن التطويل يكون سببًا لخروجهم من الصلاة، ولكراهية الصلاة في الجماعة؛ تجنبًا لعناء التطويل.

وتأمل هذا الاستفهام: (أفتان أنت؟) إنه استفهام إنكارى توبيخى يفيض بالزجر، ويفيد الاستفهام بالإضافة إلى الإنكار: النهى عن التطويل فى الصلاة، والأمر بالتجوز، وقد جاء ذلك صريحًا فى البيان النبوى، فعن أبى مسعود: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ

---

(١) (نواضح) جمع ناضح وهو البعير الذى يستقى عليه، ينظر: لسان العرب مادة (نضح).

(٢) صحيح البخارى: ك الأدب، ب من لم يرى إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلاً جـ٥ صـ٢٢٦٤، صحيح مسلم: ك الصلاة، ب القراءة فى العشاء جـ١ صـ٣٣٩.

صَلَاةِ الْغَدَاةِ؛ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ، وَالْكَبِيرَ، وَذَا الْحَاجَةِ[١].

والاستفهام أقوى دلالة فى هذا المقام من النهى المجرد أو الأمر؛ لأن فيه تنبيهًا[٢] لمعاذ على ما تسبب فيه من التنفير عن الجماعة بسبب عدم مراعاته لأحوال المأمومين، يقول العينى: النهى عن التطويل جاء "بهمزة استفهام على سبيل الإنكار، ومعناه: أنت مُنفِّر؛ لأن التطويل سبب لخروجهم من الصلاة، وللتكرُّه للصلاة فى الجماعة"[٣].

والعبارة النبوية (يا معاذ، أفتان أنت؟) دون تكرار فيها جانب من التنبيه والتأكيد يبدو واضحًا فى نداء النبى – صلى الله عليه وسلم – معاذا قبل زجره ونهيه عن تطويل الصلاة فى صورة الاستفهام الإنكارى بهمزة الاستفهام الداخلة على صيغة المبالغة، فإذا كانت هذه العبارة قد تكررت ثلاث مرات فإن مدى رسوخ ما تفيده من معانٍ فى نفس معاذ – رضى الله عنه – بعيد.

التكرار والتحذير من عقوق الوالدين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم–: (رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ)، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ)[٤].

---

(١) صحيح البخارى: ك/ الجماعة والإمامة، ب/ تخفيف الإمام فى القيام، وإتمام الركوع والسجود، جـ١، ص٢٤٨.

(٢) الأصل فى الاستفهام: طلب الفهم، وقد يشوبه معنى الإنكار أو التقرير أو الاستبعاد وغير ذلك من المعانى البلاغية، وعندما تشوبه هذه المعانى يكون المغزى الأساسى تنبيه المخاطب إلى موضع الإنكار ليرتدع وينزجر، ويقلع عما أُنكِر عليه، أو إلى موضع الإقرار فيقر به، أو إلى موضع الاستبعاد فيتنبه لبعده واستحالة وقوعه. يقول الشيخ عبد القاهر: "وأعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام فى مثل هذا بالإنكار فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع، ويعيى بالجواب...." دلائل الإعجاز ص١٥١.

(٣) عمدة القارئ: جـ٤ صـ٤٢٤.

(٤) صحيح مسلم: ك/ البر والصلة والآداب، ب/ رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر ولم يدخل الجنة، جـ٤، ص١٩٧٨.

إن ابتداء الحديث بهذا الوعيد: (رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ) يثير استشراف السامع وتشوّقه إلى معرفة ذلك الذى يتوعده النبى – صلى الله عليه وسلم– بهذا الدعاء، ويجعل المخاطب متلهفًا للوقوف على ما ارتكبه ذلك التعيس فأودى به إلى ذلك المصير(١).

تأمل هذا التعبير: (رَغِمَ أَنْفُهُ)، فهو كناية عن الذل والهوان، كأن أنفه لصق بالرغام – وهو التراب – ذلًّا وهوانًا، يقول ابن منظور: "يقال أَرْغَم الله أَنْفَه أي أَلزقه بالرَّغام، وهو: التراب، هذا هو الأصل، ثم استعمل في الذل والعجز عن الانتصاف، والانقياد على كُرْهٍ"(٢).

والتعبير: (رَغِمَ أَنْفُهُ) إخبار أو دعاء ، والضمير فى (أَنْفُهُ) مبهم بُيّن فى الجواب بقوله: (مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ)، والقصد من الإبهام ، ثم التبيين كونه أوقع في نفس السامع؛ لأن المعنى إذا ألقى على سبيل الإبهام تطلعت النفس وتشوقت إلى معرفته على سبيل الإيضاح، فعندما يأتى ذلك الإيضاح يكون أشد وقعًا، وأقوى أثرًا؛ لأنه جاء والنفس عنه تبحث، وإليه تتطلع، والشىء إذا نِيل بعد طلب ومشقة، وبحث وتنقيب يكون فى النفس أشد وقعًا وأعظم تأثيرًا، ويحدث لها بالوقوف عليه لذة ومتعة....

ثم تأمل هذا التكرار: (رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ)، الذى جاء فى مقام النهى والتحذير، والإنذار والوعيد، وهو مقام يقتضى زيادة تقرير المعنى، ويتطلب مزيدًا من الحسم، إن التكرار هنا بمثابة تتابع قرع الأجراس، وزيادة الضغط على مواطن الإحساس، للتنبيه على الخطر المحدق بمن يعقون آباءهم وأمهاتهم، وما ينتظرهم من الذل والهوان، كل هذا يثير فكر المخاطب، ويزيد من شوقه وتلهفه إلى معرفة من سيحق عليه هذا الدعاء، فيصيبه الذل والهوان، ويُصَبّ عليه العذاب صبًّا.

وتأمل المجاز المرسل فى العبارة المكررة حيث ذكر الأنف وأراد البدن كله مجازًا مرسلا بعلاقة الجزئية، وإنما خص هذا الجزء بالذكر؛ لأن الأنف هو الجزء الذى تبدو فيه مظاهر الذل والهوان والانقياد أكثر من غيره، كما تبدو فيه أيضا مظاهر العزة والسيادة والأنفة أكثر من غيره، والعرب إذا أرادوا إذلال أحد يقولون: (سنمرِّغ أنفه فى التراب)، كناية عن إذلاله، وإذا أرادوا الكناية عن عزته يقولون: (فلان أنفه فى السماء)، أى: مرفوع.

---

(١) ينظر: التشويق فى الحديث النبوى الشريف طرقه وأغراضه، للدكتور/ بسيونى فيود، ص١١٤.
(٢) لسان العرب: مادة (رغم)، وينظر أساس البلاغة للزمخشرى، مادة (رغم).

ولنا وقفة مع حرف العطف (ثم) الذى عُطفت به الجمل المكررة: (رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ)، فالغرض الأصيل من التكرار هو: توكيد المعانى وتقريرها، كما ذكر أهل اللغة، يقول ابن قتيبة: "أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم التكرار؛ إرادة التوكيد والإفهام"(١).

وإذا كان الغرض الأصيل من التكرار هو: توكيد المعانى وتقريرها، فإن الفصل هو الأحق بها على ما قرره أهل البلاغة، وفى مقدمتهم الإمام/ عبد القاهر فى قوله: "واعلم أنه كما كان فى الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله، فيستغنى بصلة معناه له عن واصل يصله، ورابط يربطه، وذلك كالصفة التى لا تحتاج فى اتصالها بالموصوف إلى شىء يصلها به، وكالتأكيد الذى لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكد، كذلك يكون فى الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتى قبلها، وتستغنى بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهى كل جملة كانت مؤكِّدة للتى قبلها، ومبينة لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئا سواها"(٢)، ثم يقول وهو يوجز أحوال الجمل فصلا ووصلا: "فاعلم أنا قد حصلنا من ذلك على ثلاثة أضرب: جملة حالها مع التى قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكَّد، فلا يكون العطف فيها البتة، لشبه العطف فيها لو عُطِفت بعطف الشىء على نفسه"(٣).

ومن هنا يبدو مكمن الإشكال؛ لأن لسان العرب حافل بأمثلة عطفت فيها جملة التوكيد على الجملة المؤكَّدة، مثل الحديث الذى معنا، وغيره كثير؛ مما أدى إلى تضارب الآراء فى إجازة مثل هذا العطف أو منعه(٤)، والظاهر من كلام البلاغيين أنهم يمنعون العطف ما لم يكن فى المعطوف زيادة يغاير بها معنى ما عُطف عليه، وإلا كان من عطف الشىء على نفسه، كما

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ص٢٣٥.

(٢) دلائل الإعجاز: ص٢٢٧.

(٣) دلائل الإعجاز: ص٢٤٣، وينظر: نهاية الإيجاز للرازى، ص٢٢٧

(٤) ينظر: تحفة الأشراف فى غوامض الكشاف للعلوى، جـ١، ص٢٥٣، والكشاف: جـ١، ص٣٢٢، ٣٨٣، وتفسير الفخر الرازى: جـ٩، ص١٧١، وتفسير البيضاوى: جـ٨، ص١٢٨، وحاشية الشهاب: جـ٨، ص٣٩٤، وتسهيل الفوائد لابن مالك: ص١٦٦. وشرح الكافية للرضى: جـ٢، ص٣٦٧، وعدة السالك إلى أوضح المسالك للشيخ محى الدين عبد الحميد: ج٣، ص٣٣٦، والبلاغة العالية للشيخ عبد المتعال الصعيدى: ص١٠٦.

أثبتوه فى حديثهم عن كمال الاتصال، وهذا ما يفهم من كلام العصام فى قوله – تعالى –: (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ)[١]، قال: "ولما استشعر أن يستبعد كون الكلام تكريرًا، لأن العاطف يستدعى كون المراد بالثانى غير الأول، قال لدفعه (وفى (ثم) دلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول، يعنى أن (ثم) مستعار من التراخى الزمانى إلى التدرج فى درج الارتقاء من غير اعتبار التراخى والبعد بين تلك الدُّرَج، فإذا قلت: إذا كان الإنذار الثانى أبلغ لم يكن تكريرًا، قلت: كونه أبلغ باعتبار زيادة اهتمام المنذر به، لا بأنه زاد فى المفهوم شيئا"[٢].

إن مثل هذا العطف إذا لم يكن له غرض سوى التوكيد يصبح دخول العاطف فيه ضربا من الزيادة العارية عن الفائدة، وهو فوق مخالفته لقوانين أهل اللغة لا ينبغى القول بمثله فى كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فضلا عن كلام الله – عز وجل –، وإذا كان هذا العطف ثابتًا فى كتاب الله، وفى السنة النبوية الشريفة، وبخاصة فى عطف الجمل المكررة فإن الجهود يجب أن توجه إلى البحث عن أسراره، وما أضافه دخول العاطف فيما كان الظاهر عدم دخوله.

ويهمنى هنا الكشف عن بلاغة العطف بحرف المهلة (ثم) فى قوله – صلى الله عليه وسلم : (رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ)، إن العطف ب(ثم) بين الجمل المكررة هنا يشير إلى أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول، والإنذار الثالث أبلغ من الثانى وأشد، إننا نتجاوز القول بالتأكيد – وهو الذى يمكن أن يُؤدى بغير عاطف – إلى استلهام معنى الحرف، واستعارة التراخى الزمانى للتراخى فى الرتبة؛ ليكون الإنذار الثانى أشد من الأول، والثالث أشد وأبلغ من الثانى، إن حرف التراخى (ثم) كشف لنا عن سرَّين من أسرار الإتيان به بين الجمل المكررة: (رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ)، أحدهما: المغايرة بين الجمل المعطوفة؛ لتفاوتها فى الشدة، وثانيهما: إيثار حرف المهلة على غيره من حروف العطف؛ لأنه وحده الذى يميز بين التهديدات والتحذيرات، ويطيل المسافة بينها بقدر ما فيه من اتساع الزمن وبعده.

وقد كشف السبكى عن السر فى كون الإنذار الثانى أبلغ من الأول فى قوله: "وسره أن فيه تنبيهًا على أن ذلك تكرر مرة بعد أخرى، وإن تراخى الزمن بينهما، ومن شأن ذلك أنه لا يكون إلا فى شىء لا يقبل أن يتطرق إليه تغيير، بل هو مستمر على تراخى الزمان"[٣].

---

(١) التكاثر: ٣، ٤.

(٢) الأطول لعصام الدين شيخ زادة: جـ٢، ص٤٤.

(٣) عروس الأفراح: ج٣، ص٢٢٩، وينظر: مواهب الفتاح للمغربى: جـ٣، ص٢١٩.

لقد قطع هذا الحرف (ثم) الدّال على التفاوت فى إنذار العاق لوالديه وتهديده، قطع كل أمل له فى أن يُغيِّر الرسول – صلى الله عليه وسلم– موقفه بمرور الزمن، وكأنه يقول: رغم أنفه الآن، ورغم أنفه غدا، ورغم أنفه ما عاش إن لم يكن بارًّا بوالديه.

إن إيثار هذا التعبير (رَغِمَ أَنْفُهُ)، ثم تكراره معطوفًا بالحرف (ثم) الذى يدل على الإبعاد فى الذل والهوان، يثير فكر المخاطب، ويزيد من شوقه وتلهفه لمعرفة من سيحق عليه هذا الدعاء، وذاك التهديد، فإذا ما جاء قوله – صلى الله عليه وسلم– (مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ) قرّ فى الوجدان؛ لأن المخاطب قد هُيّئ لتلقيه، وذلك يكون باعثًا له على تجنب عقوق الوالدين، والمبادرة إلى برهما، والإحسان إليهما؛ لنيل الثواب العظيم، وتجنب العقاب المهين.

ومما يلاحظ أن هذا القيد: (عِنْدَ الْكِبَرِ) قد جاء للتبشيع والتفظيع، كما فى قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[١]، فليس المراد فى الآية الكريمة إباحة الربا إذا لم يكن أضعافا مضاعفة، وإنما قيد النهى بهذا القيد؛ تفظيعًا له بإظهاره فى أبشع صورة، ليكون ذلك داعيًا لتجنبه، والابتعاد عنه[٢]، وكذلك التقييد بالكِبَر فى الحديث الشريف ليس المراد منه: أن من عقّ والديه ، ولم يحسن إليهما فى غير حال الكبر خارجًا عن هذا الدعاء، ولكن المراد: إبراز العقوق فى أبشع صوره وأفظعها؛ للتنفير والتحذير منه، وللحس على البر والإحسان إلى الوالدين، فحاجة الوالدين إلى الابن إنما تشتد فى حال الكبر؛ فعند الكبر يكونان أحوج إلى حقوقهما.

---

(١) آل عمران: ١٣٠.

(٢) يقول ابن عاشور: "فالحال وارد لقصد التشنيع وإرادة هذه العاقبة الفاسدة. وإذ قد كان غالب المدينين تستمر حاجتهم آجالا طويلة، كان الوقوع في هذه العاقبة مطردا، وحينئذ فالحال لا تفيد مفهوما كذلك إذ ليس القصد منها التقييد بل التشنيع، فلا يقتصر التحريم بهذه الآية على الربا البالغ أضعافا كثيرة، حتى يقول قائل: إذا كان الربا أقل من ضعف رأس المال فليس بمحرم. فليس هذا الحال هو مصب النهي عن أكل الربا حتى يتوهم متوهم أنه إذا كان دون الضعف لم يكن حراما" التحرير والتنوير، جـ٣، ص٢١٨.

قال النووي: "معناه: أن برّهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة، والنفقة، وغير ذلك سبب لدخول الجنة ، فمن قصر في ذلك فاته دخول الجنة، وأرغم الله أنفه"[١]، و(ثم) في قوله: (ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ) استبعادية يعني : ذل وخاب وخسر من أدرك تلك الفرصة التي هي موجبة للفلاح والفوز بالجنة ، ثم لم ينتهزها ، وانتهازها هو ما اشتمل عليه قوله – تعالى –: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)[٢]؛ فإنه دل على اجتناب جميع الأقوال المحرمة، والإتيان بجميع كرائم الأقوال والأفعال من التواضع، والخدمة، والإنفاق عليهما ، ثم الدعاء لهما في العاقبة.

وإذا كان النبى – صلى الله عليه وسلم – قد حذر فى هذا الحديث – مستعينًا بأسلوب التكرار – من عقوق الوالدين، فإننا نراه فى حديث آخر يستعين بأسلوب التكرار فى الحض على حسن صحبتهما، والتفانى فى الإحسان إليهما وطاعتهما، فلنتأمل هذا الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ[٣].

فالرجل يسأل عمن هو أولى بمعروفه وبره وحسن صحبته المقرونة بلين جانبة، وحسن خلقه، وحسن معاشرته، ويأتيه الجواب بأن أحق الناس بحسن صحبته وأولاهم ببره هى الأم؛ لضعفها وحاجتها؛ "ولكثرة تعبها عليه وشفقتها وخدمتها ومعاناة المشاق فى حمله ثم وضعه، ثم إرضاعه ثم تربيته وخدمته وتمريضه وغير ذلك"[٤] وبعد الجواب النبوى الشريف أراد السائل أن يعرف من يلى الأم فى أحقية حسن الصحبة، فأراد النبى ــ صلى الله

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى، ط/ الثانية، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٣٩٢هـ، جـ١٦، ص١٠٩.

(٢) الإسراء: ٢٣، ٢٤.

(٣) صحيح البخارى: ك الأدب، ب من أحق الناس بحسن الصحبة، جـ٥ صـ٢٢٢٧، صحيح مسلم: ك البر والصلة، ب بر الوالدين...جـ٤ صـ١٩٤٧.

(٤) مسلم بشرح النووى جـ١٦ صـ٣١٨.

عليه وسلم ــ أن يقرر فى نفسه واجب حسن الصحبة للأم، فأعاد الجواب السابق؛ تأكيدًا لوجوب القيام بحق الأم، ولم يتوقع الرجل أنه إذا سأله للمرة الثالثة عن التالى للأم فى حسن الصحبة أن يجيبه بنفس الجواب، ولكن هذا الذى قد كان، ويعنى ذلك منه ــ صلى الله عليه وسلم ــ المبالغة فى تأكيد حق الأم؛ تأكيدًا لا يتأتَّى معه غبن أو تساهل.

وإذا كان الله ــ سبحانه ــ قد سوى بين الوالدين فى خفض جناح الذل من الرحمة وفى الإحسان إليهما وعدم الخروج عليهما من حال يضيق بها الابن منهما فقد خص الأم بالحمل كرها والوضع كرها، وبالحمل وهنا على وهن، وذكر الزمن الذى هو أشد عليها من عمر ولدها جميعه فقال: (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا)[١]؛ ليبين كم فى هذه الثلاثين للأم من سهر وضنى يكفل لها ــ لو انفرد ــ استحقاق المكافأة بأعظم البر والحنان، ولذلك فإن تكرار اللفظ النبوى فى الجواب حتى ذكرها ثلاث مرات كالتنبيه لهذه الثلاث: الحمل كرهًا، والوضع كرهًا، والرضاع وما فيه من المشاق، فإذا لوحظ أن السائل كان يعطف جملة السؤال بـ (ثم) نشعر من صنيعه أنه كان يريد النقلة بعيدًا عن الوالدين؛ ظنًا منه أن معرفته لحقهما أمر مفروغ منه، ومن هنا كان تصدير جواب الاستفهام بنفس الأداة انتقالًا بالسائل إلى مرحلة أبعد مما يعرف من حق الأم؛ لأنه أعلى وآكد من صورة عامة تدور فى خلده، وقد اكتفى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بتصعيد حق الأم إلى هذا الحد بالتكرار المقرب لحقها حتى نخفض لها جناح الذل من الرحمة وحتى لا نُؤثر عليها عزيزًا من مال أو زوج أو ولد، وإذا كان الأب وهو من هو فى حياة الولد وأمه وقع فى رابع المنازل، فوقوعه كذلك يطبع حق الأم السابق بطابع الجزم والتأكيد، حيث جعل لها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثلاث أمثال ما للأب من البر؛ وذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاعة، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها، ثم تشارك الأب فى التربية، فلا غرو إذن فى أن تستحق من الولد الحظ الأوفر من البر وحسن الصحبة[٢].

---

(١) الأحقاف: ١٥.

(٢) ينظر: فتح البارى، جـ١٠ صـ٤٠٢، دليل الفالحين جـ٢ صـ١٥٠. الحديث النبوى، من الوجهة البلاغية صـ٨٢

التكرار والتحذير من إيذاء الصِّدّيق – رضى اللّه عنه–

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم–: (أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ)، فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ) ثَلاَثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لاَ، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – يَتَمَعَّرُ حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم–: (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ، وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟) مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا[1].

فالحديث الشريف يصور لنا ضيق أبى بكر – رضى الله عنه – من عدم قبول عمر – رضى الله عنه – لعذره وعدم الصفح عنه، ثم يصور لنا الحديث مدى ضيق النبى – صلى الله عليه وسلم – وغضبه من صنيع عمر – رضى الله عنه –، وأول ما نطق به النبى – صلى الله عليه وسلم – تعقيبًا على ما حدث قوله: (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ)، وقد كُررت هذه العبارة ثلاث مرات، والغرض من هذا التكرار هو: التأكيد على طلب المغفرة وتقريرها فى نفس الصديق – رضى الله عنه –؛ تفريجًا لهمه، وإذهابًا لحزنه، وكأنه يقول له: إذا كان عمر لم يغفر لك فرب عمر (يغفر) – هكذا بصيغة المضارعة – لك ما حدث منك، وما يحدث، وما سيحدث، ويتجاوز عنك فلا تحزن.

وبالنظر فى قول النبى – صلى الله عليه وسلم –: (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ) نرى أنه خبر وضع موضع الإنشاء، والغرض من وضع الخبر هنا موضع الإنشاء هو التفاؤل، وإظهار الحرص والرغبة فى حصول المعنى الإنشائى وتحققه؛ إدخالا للسرور على قلب الصديق – رضى الله عنه –.

---

(١) صحيح البخارى: ك فضائل الصحابة، ب قول النبى –صلى الله عليه وسلم– : (لو كنت متخذا خليلا) جـ٣ صـ١٣٣٩.

وتأمل العبارة المكررة: (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ) فالنبى – صلى الله عليه وسلم – ينادى أبا بكر – رضى الله عنه – وهو قريب منه ، وقد استخدم (يا) الموضوعة لنداء البعيد؛ لينبئ ببعد مكانته، وسمو منزلته، ثم ناداه بكنيته المحبوبة لديه؛ قصدًا لتكريمه وبيان مكانته عند الله ورسوله، والعربى بطبعه يُقْبِل على الكُنَى والألقاب المحمودة، ويحب الانتساب إليها، وينفر من الكنى والألقاب المذمومة، ويكره الانتساب إليها.

أما العبارة الثانية التى كُرِّرت فى الحديث النبوى فهى قوله – صلى الله عليه وسلم –: (فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟)، فهذه العبارة كررت مرتين فى آخر الحديث، والغرض من تكرارها هو: تأكيد التحذير من إيذاء الصديق والتخويف من إغضابه، ومن الملاحظ أن الجملة المكررة قد بُنيت وصيغت فى ثوب الاستفهام الذى جاء تعقيبًا على ما حدث من إغضاب عمر أبا بكر، فأفاد الأمر بترك إيذاء أبى بكر – رضى الله عنه – والحث على اجتناب ما يغضبه، بالإضافة إلى إنكار ما حدث، والتحذير من تكراره، وقد ذكر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الحديث الأسباب الصارفة على إيذاء صاحبه الموجبة للانتهاء عن إيذائه وإغضابه، فأبو بكر ــ رضى الله عنه ــ حين كذّب الناس وأجمعوا على وأد الدعوة ــ كانت له سابقة الإسلام والتصديق والمواساة بالنفس والمال، لهذه الأسباب جاء الاستفهام النبوى متضمنًا معنى الأمر، مُعْرِضًا عن صيغته، لأن المخاطبين ليس لهم بعد الوقوف على هذه الأمور إلا الانتهاء عن الإيذاء والالتزام بالطاعة.

ومما يُقَوِّى هذه الإفادة ويؤكدها العدول عن الفعل إلى الاسم بعد (هل) التى لها مزيد اختصاص بالأفعال[١]، فقد أبرز هذا العدول ما يدل على التجدد والحدوث وهو الفعل فى

---

(١) ذكر العلماء أن (هل) لها مزيد اختصاص بالأفعال، وأن ذلك يرجع إلى الأمور الآتية، أولا: أنها فى الأصل بمعنى (قد)، و(قد) لا تدخل إلا على الأفعال، فكذلك ما هو بمعناها، ثانيا: تأثيرها فى بعض أنواع الفعل، وهو المضارع بتخليصه – غالبا – للاستقبال، ثالثا: اختصاصها بطلب التصديق، وهو إدراك النسبة، وهذا بطبيعته يتوجه إلى المعانى لا إلى الأفراد، أى: إلى الفعل دون الاسم؛ لأن الحكم بالثبوت أو الانتفاء يتوجه إلى الحدث الذى هو جزء من مفهوم الفعل، إذ الفعل حدث وزمن، ولكون (هل) لها مزيد اختصاص بالأفعال، فإنه لا يعدل عن الفعل بعدها إلى الاسم إلا لنكتة بلاغية..، وهى: أن يجعل ما يحدث ويتجدد الذى هو مفاد الجملة الفعلية، أو يجعل ما سيوجد باعتبار أن (هل) تخلص المضارع فى الغالب للاستقبال، فى معرض الكائن الحاصل الذى هو مفاد الجملة الاسمية؛ اهتماما=

معرض المحقق الثابت وهو الاسم مما يدل على كمال العناية وشدة الحرص على وقوع تـرك الإيذاء وتحققه، ويفيد الاستفهام بالإضافة إلى إفادة الأمر: التهديد والتوعد لمن لم يحقق هـذا الأمر ويسارع فى تنفيذه.

ويلاحظ أن الاستفهام بهل فى هذا الحديث أكثر دلالة على المعنى المراد من الاسـتفهام بالهمزة؛ فقولنا: أأنتم تاركو لى صاحبى وإن كان دالا على الثبوت والتحقـق باعتبـار كـون الجملة اسمية إلا أن الاستفهام بـ(هل) أقوى دلالة على المعنى المراد من حيث إن لـ(هـل) مزيد اختصاص بالأفعال، فترك الفعل معها والعدول إلى الاسم يدل على مدى عناية الرسول – صلى الله عليه وسلم– واهتمامه وقصده إلى معنى الاسمية، ليبـرز مـا يـدل علـى التجـدد والحدوث فى معرض المحقق الثابت الدائم، ولهذا فإن البلاغيين[1]، لا يستحسنون هذا العـدول إلا من البليغ لأنه وحده الذى يلتفت إلى تلك المزايا ويراعى هذه الدقائق.

=بشأنه، واعتناء بأمره، وذلك بناء على قول البلاغيين: إن الجملة الفعلية تفيـد التجـدد والحـدوث، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام، تأمل قوله – تعالى : (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّـن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ) الأنبياء: ٨٠، وقوله – عز وجل –: (قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) الأنبياء: ١٠٨، تجد أن قوله: (فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ – فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) أدل علـى طلب حصول الشكر والإسلام من قولك: فهل تشكرون؟ فهل تسلمون؟، أو فهل أنتم تشكرون؟ فهل أنتم تسلمون؟؛ وذلك لأن الجملة الاسمية تفيد التوكيد، وتدل على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية، ولأن إبراز ما يحدث ويتجدد فى معرض الحاصل الثابت أقوى دلالة على الاهتمام بشأنه وكمال العنايـة بحصوله من إبقائه على أصله...، وكذا من قولك: أفأنتم شاكرون؟ أفأنتم مسلمون؟، وإن كانت صيغته للثبوت – كما نرى – ؛ لأن (هل) نزاعة إلى الفعل وأدعى له من الهمزة، فتركه معها أدل على كمـال العناية بحصوله، وشدة الاهتمام بوقوعه؛ ولهذا قال البلاغيون: إن قولك: هل زيد منطلق؟ أقوى دلالـة على طلب حصول الانطلاق والاهتمام بوقوعه من أن تقول: أزيد منطلق؟..، وقالوا: إن العـدول عـن الهمزة إلى (هل) فى مثل هذا لا يحسن إلا من البليغ؛ لأنه هو الذى يلتفت إلى تلك الـدقائق، ويراعـى هذه النكات البلاغية، ويقدر على تطويع الكلام، وتكييف العبارات، وصياغتها على حسب مـا يقتضـيه المقام... ينظر فى هذا: الإيضاح جـ٢ صـ ٣٧، ٣٨، المطول : صـ٢٣١، شروح التلخيص جـ٢ صـ ٢٦٨، ٢٧١، وعلم المعانى للدكتور/ بسيونى: جـ٢، ص١٢٢،١٢١.

(١) الإيضاح جـ٢ صـ٣٨، المطول صـ٣٣١، شروح التلخيص جـ٢ صـ٢٧١.

هذا: وقد التزم الصحابة بتوجيه النبى – صلى الله عليه وسلم– فكان ترك إيذاء أبى بكر مُحَقَّقًا ثابتًا كما أراد النبى – صلى الله عليه وسلم– وكما ذكر الراوى: فما أوذى الصديق بعد هذه المرة، بل كان محط تكريم وتشريف وحب لدى سائر الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين –

التكرار والتحذير من الدنيا.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – قَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الأَرْضِ، ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا فَبَدَأَ بِإِحْدَاهُمَا وَثَنَّى بِالأُخْرَى، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – قُلْنَا: يُوحَى إِلَيْهِ، وَسَكَتَ النَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمِ الطَّيْرَ، ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ الرُّحَضَاءَ، فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا؟ أَوَخَيْرٌ هُوَ؟ – ثَلاَثًا – إِنَّ الْخَيْرَ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِالْخَيْرِ وَإِنَّهُ كُلُّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا ، أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ كُلَّمَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ، فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ، ثُمَّ رَتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالآكِلِ الَّذِي لاَ يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.(١)

يسوق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذا الحديث فى مقام التبليغ والإنذار محذرًا من الأثرة والأنانية ولوثات الجشع "فالأثرة كالنار تزداد اشتعالا كلما ازداد وقودها، والناس تسكرهم النعم المتاحة والرغبات المجابة والأموال الدافقة فينسون حق الله فيما أعطى ونصيب عباده مما أوتوا وتأبى عليهم أثرتهم السكرى إلا أن يفسدوا فى الأرض ويقطعوا أرحامهم"(٢) والنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يرمق ببصيرة النبوة الملهمة ما سيفتح لأمته من بركات الأرض وخيراتها، ومتاع الدنيا ونعيمها، فيحذر الأمة من مرتع الأثرة الوبىء ويرغبها فى القسط والاعتدال.

---

(١) صحيح البخارى: ك الجهاد، ب الانفاق فى سبيل الله جـ٣ صـ١٠٤٥، صحيح مسلم: ك الزكاة، ب تخوف ما يخرج من الدنيا جـ٢ صـ٢٧٢.

(٢) محمد الغزالى: ليس من الإسلام. صـ٢٤.

والحديث يبدأ بقوله: ــ صلى الله عليه وسلم ــ (إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الأَرْضِ ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا فَبَدَأَ بِإِحْدَاهُمَا وَثَنَّى بِالأُخْرَى) وهذا، القول النبوى عجيب؛ لعدم جريه على المألوف العام من القواعد والعادات إذ إن تفجر الأرض بالزروع والثمار وكثرة الأموال والمتاع خير يساهم فى إسعاد الناس ورفع العناء عنهم، ولغرابة هذا الخبر ورد مؤكدًا حيث جاء فى صورة القصر "والقصر ليس إلا تأكيدًا على تأكيد"(١)، وأيضًا استعمال (إنما) التى "تجىء للخبر لا يجهله السامع ولا ينكر صحته، أو لِما ينزل هذه المنزلة"(٢)، والنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين بدأ خطبته بهذا الخبر العجيب المؤكد المنزل منزلة المألوف المستأنس كان يريد الكشف عن معان غير معروفة وكان يريد تلقين أصحابه من هذه المعانى ما لم يعلموا، ومن هنا كان فى تصدير الحديث بهذا الخبر العجيب إثارة وتنبيه وتشويق للسامعين كى تشرئب نفوسهم، وتتهيأ مداركهم فيسألوا عما وراء الخبر.

وقد عمل هذا المطلع المثير للسؤال عمله فى نفوس الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ فسأل سائلهم مسترشدًا متعجبًا (أَوَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟)، "وهو استفهام إنكار واستبعاد، أى: يبعد أن يكون الشئ خيرًا ثم يترتب عليه شر"(٣)، ويأتى الجواب النبوى بعد سكوت طويل فى صورة استفهام (أَوَخَيْرٌ هُوَ؟ – ثَلاَثًا – إِنَّ الْخَيْرَ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِالْخَيْرِ)، "وهو استفهام إنكار. أى: إن المال ليس خيرًا حقيقيًّا وإن سُمّى خيرًا؛ لأن الخير الحقيقى هو ما يعرض له من الإنفاق فى الحق، كما أن الشر الحقيقى فيه ما يعرض له من الإمساك عن الخير والإخراج فى الباطل"(٤).

فالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يكشف مفهومًا خاطئًا لدى الناس، فينكر أن تكون زهرة الدنيا ومتاعها خيرًا مطلقًا، ويستبعد ذلك، ويكرر الإنكار تأكيدًا، فمعنى استفهامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ "أن هذا الذى يحصل لكم من زهرة الدنيا ليس بخير، وإنما هو فتنة، وتقديره: الخير لا يأتى إلا بالخير، ولكن ليست هذه الزهرة بخير؛ لما تؤدى إليه من الفتنة والمنافسة والاشتغال بها عن كمال الإقبال على الآخرة، ثم ضرب لذلك مثلا فقال ــ صلى الله

---

(١) الإيضاح، جـ٢، صـ١٤.

(٢) دلائل الإعجاز: صـ٣٥١.

(٣) مسلم بشرح النووى، جـ٧ صـ١٤٣.

(٤) فتح البارى، جـ١١ صـ٢٤٦.

عليه وسلم ــ: (وَإِنَّهُ كُلُّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا ، أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ .....) ومعناه أن نبات الربيع وخضره يقتل حبطًا بالتخمة لكثرة الأكل أو يقارب القتل إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذى تدعو إليه الحاجة وتحصل به الكفاية المقتصدة فإنه لا يضر، وهكذا المال هو كنبات الربيع مستحسن تطلبه النفوس وتميل إليه، فمنهم من يستكثر منه ويستغرق فيه غير صارف له فى وجوهه، وهكذا يهلكه أو يقارب إهلاكه، ومنهم من يقتصد فيه فلا يأخذ إلا يسيرًا، وإن أخذ كثيرًا فرقة فى وجوهه كما تسلطه الدابة فهذا لا يضره"[١].

إن هذا المثل الذى ضربه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليس إلا توضيحًا وبيانًا وتدليلا على إنكاره أن تكون زهرة الدنيا خيرًا مطلقًا، وليس إلا توضيحًا وتدليلًا وتأكيدًا للتحذير من زهرة الدنيا، فكم من أناس سبت الدنيا أعينهم وأفئدتهم فامتدت لها أيديهم، وتفتحت لها شهيتهم فما زالوا يتناولون منها حتى اكتظوا، وما زالت أثرتهم تلح عليهم بالمزيد حتى لحقوا بالدواب النافقة فهلكوا، إن التشبع من الدنيا على هذا النحو خسران مبين، واختزان الأموال عند ذويها كإمساك الأطعمة فى الجوف، والفضلات التى تحبس فى بطون أصحابها تتحول سمومًا مبيدة، ولا ينجو من هذا الشر إلا من أخذ المال بحقه فأنفقه فى حقه[٢]، وقاعدة ذلك وضعها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بقوله: (وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالآكِلِ الَّذِي لاَ يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) إن تكرار قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (أو خير هو؟) ثلاثًا، نهج تعليمى تربوى سديد أضفى على المكرر ــ وهو بركات الأرض وزهرة الدنيا ــ ما أكد نفى خيريته المطلقة فى نفوس المخاطبين.

---

(١) مسلم بشرح النووى، جـ٧ صـ١٤٤.

(٢) محمد الغزالى؛ ليس من الإسلام، صـ٢٥.

المبحث الثالث

بلاغة التكرار فى مقام الشوق والحنين

مقام الشوق والحنين من أدعى المقامات لأسلوب التكرار، لأن المشتاق دائما ما يكرر ما تهفو إليه نفسه، ويعاود ذكره مرة بعد مرة، ويكون ذلك انعكاسا طبيعيا لشعوره وأحاسيسه، وما يختلج فى نفسه من مشاعر الحب والشوق والحنين، فالتكرار فى هذا المقام كالمرآة الصادقة التى تنعكس عليها مشاعر المحب، ورغباته، وهذا يتناغم تماما مع الطبيعة الإنسانية التى إذا أحبت شيئا أكثرت من ذكره، وإذا اشتاقت لمكان لهج به لسانها، وإذا رغبت فى أمر ألحت فى طلبه، وإليك أيها القارئ الكريم بعض الشواهد التى جاء فيها التكرار متطلبا من متطلبات الشوق والحنين.

التكرار والشوق إلى يوم عائشة – رضى الله عنها –

عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَمَّا كَانَ فِي مَرَضِهِ جَعَلَ يَدُورُ فِي نِسَائِهِ، وَيَقُولُ: (أَيْنَ أَنَا غَدًا؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا؟) حِرْصًا عَلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمِي سَكَنَ[1]

فالحديث يشير إلى المرض الذى قُبض فيه النبى ــ صلى الله عليه وسلم – وأنه كان فى مرضه يتنقل فى حجرات أزواجه، ويقول: (أَيْنَ أَنَا غَدًا؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا؟)؛ وقد تعانق فى تلك المقولة أسلوب التكرار مع الاستفهام، والغرض من هذا التكرار هو إظهار ما فى صدر النبى – صلى الله عليه وسلم – من شوق وحنين ليوم عائشة – رضى الله عنها – لأنه – صلى الله عليه وسلم – أحس بدنو أجله، فاشتاق ليومها حتى يدفن فى حجرتها، فكان التكرار فى هذا الحديث مرآة صادقة لما تتطلع إليه نفس النبى – صلى الله عليه وسلم – وتشتاق لنيله، وتحن إلى حصوله.

---

(١) صحيح البخارى: ك فضائل الصحابة، ب فضل عائشة ــ رضى الله عنها ــ جـ٣، صـ١٣٧٦.

إن الغرض من هذا التكرار (أَيْنَ أَنَا غَدًا؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا؟) هو إبراز المعانى القلبية التى تخالج النبى – صلى الله عليه وسلم – وتقريرها فى نفوس سامعيه؛ حتى يحققوا له ما تشتاق إليه نفسه، وقد تآزر الاستفهام هنا مع التكرار فى التنبيه على حقيقة ما يدور فى نفس النبى – صلى الله عليه وسلم – من شوق وحنين ليوم عائشة – رضى الله عنها – فالاستفهام هنا لا يراد به حقيقته من"طلب حصول صورة المستفهم عنه فى ذهن المستفهم بأدوات مخصوصة"[١]، وإنما يُراد به: الاستبطاء، فالنبى – صلى الله عليه وسلم – صاغ ما تهفو إليه نفسه من شوق وحنين ليوم عائشة فى ذلك الاستفهام المكرر (أَيْنَ أَنَا غَدًا؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا؟)؛ استبطاء ليوم عائشة، واستطالة للزمن قبله .

والاستفهام فى الحديث وإن أفاد معنى الاستبطاء إلا أنه تضمن أيضا معنى التمنى؛ لأن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يحب عائشة ــ رضى الله عنها–، ويتمنى أن يقبض عندها حتى يدفن فى حجرتها، ومن هنا كان يكرر هذا الاستفهام؛ خشية أن يقبض فى غير يومها وبيتها، فيدفن فى غير حجرتها، ومن هنا جاءت أمنيته فى صور الاستفهام؛ طمعا فى حصولها، ورغبة فى تحققها، فلما علمت أزواجه بأمنيته وأنه يتطلع إلى يوم عائشة ويستبطئ مجيئه أذنّ له فى أن يمرض عندها، فتحققت أمنيته ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقبض فى يوم عائشة ودفن فى حجرتها..

التكرار والشوق إلى إيمان أبى طالب.

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم–: لأَبِي طَالِبٍ: يَا عَمِّ، قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: أَمَا وَاللَّهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ....[٢]

---

(١) التفتازانى وآخرون: شروح التخليص، بيروت، دار الكتب العلمية جـ٢ صـ٢٤٦.

(٢) صحيح البخارى: ك الجنائز، ب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، جـ١، صـ٤٥٧، وصحيح مسلم: ك الإيمان، ب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع فى النزع، جـ١، صـ٦٢.

يصور الحديث الشريف معاناة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع عمه أبــى طالــب، وشدة حرصه على إيمانه، وهذا الحرص نابع من حب متبادل بينهما، فالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحب عمه ويتمنى له الهداية؛ فهو الذى كفله بعد موت جده عبد المطلب، وهو الــذى كان يمنعه من قريش، وكان أبو طالب يبادل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ نفس الحب، وما وصل أذى قريش إلى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلا بعد وفاة أبى طالب.

وبمثل حرص النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على إيمان عمه كان المشركون أحرص على عدم إيمان أبى طالب؛ لأنه من سادات قريش، وإسلامه يمثل هزيمة لهم فى معركتهم ضد الإسلام، هذا فضلا عن أن إسلامه يفتح الباب أمام الكثيرين للدخول فى الإســلام، ومــن هنــا نستطيع أن نفسر تواجد اثنين من عتاة المشركين عند أبى طالب فى مرض موتــه يزاحمــون النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى دعوته لعمه أن ينطق بشهادة التوحيد.

والغرض من تكرار قول النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لعمه: (يَا عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ) – كما قال الراوى: (فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ)–: استمالة المخاطب، وترغيبه فى قبول الحق واتباع الهــدى، ووراء حــرف النداء (يا) الموضوع لنداء البعيد تعظيم لمكانة عمه، وتشريف ورفع لمنزلته، وهكــذا كانــت منزلة أبى طالب فى قريش، وهكذا أيضا خُلُق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع عمه الــذى كفله ومنع عنه أذى المشركين حتى ولو كان على غير دينه، وفى إضافته إليه (يَا عَمِّ) ما يبدد كل شك، ويزيل كل ارتياب فى نصحه وإخلاصه له، وشوقه وحنينه لإسلامه، وفى الإضافة مــا فيها من مدى الاستعطاف لعمه، والشفقة عليه.

والأمر فى قوله لعمه: (قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ) أمر لــيس علــى حقيقته من طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء[1]؛ لأن النبى ــ صلى الله عليــه وســلم ــ وهو صاحب المقام المحمود والخلق الرفيع يقدِّر عمه ولا يصدر له أمرا على جهة الاستعلاء، فضلا على أن دعوة الإسلام إنما تكون بالحكمــة والموعظــة الحســنة، ولا تكــون بــالإلزام والإجبار، ومن هنا فقد تضمن الأمر معنى التمنى، وهذا المعنى يجسد شدة ما يعانيه النبــى ــ

(١) ينظر: المطول وحاشية السيد الشريف عليه، صـ٢٣٩.

صلى الله عليه وسلم ــ من عدم إسلام عمه ورغبته القوية فى إسلامه وهدايته؛ خوفا عليه من غضب الله ــ تعالى ــ ونار جهنم.

وقد أبرز النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمنيته هداية عمه فى صورة الأمر الممكن الوقوع الجائز الحصول، ووراء ذلك ما وراءه من الطمع فى تحقيق تلك الأمنية والرغبة فى حصولها، وقد مهد لها بهذا النداء (يَا عَمِّ) والنداء يوقظ الذهن وينبه المشاعر ويلفت النفس ويهيؤها فإذا ما جاء (الأمر) صادف نفسا مهيأة يقظة فيقع منها موقع الإصابة حيث تتلقاه بحس واع ونفس يقظة وذهن منتبه.

وفى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ)، حث لأبى طالب على قول لا إله إلا الله، وترغيب له فى شهادة التوحيد؛ بوصفها طريقا لشفاعة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ له، وحجاجه عنه يوم القيامة، وأيضا فى تكرار النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لهذا الطلب مزيد من الحث لأبى طالب كى ينطق بكلمة التوحيد، وفى هذا ما فيه من حرص النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على إسلام عمه، ورغبته فى أن يحقق له أمنيته.

ولقد كان أبو طالب فى صراع نفسى بين تحقيق أمنية ابن أخيه، وإنكار أبى جهل وعبد الله بن أبى أمية ، فقد قالا له: (يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟) فحفظوا له بهذا النداء الموضوع للبعيد سمو منزلته بينهم، وقصدوا عندما نادوه بكنيته (أَبَا طَالِبٍ) إلى تعظيمه، ثم جاء استفهامهم الذى أريد به الإنكار على أبى طالب ما همّ به من الميل إلى الإسلام، ونهيه عن ذلك، وإمعانا فى الإنكار والنهى ذكروه بملة أبيه عبد المطلب؛ احتيالا منهما على تثبيطه من تلبية رغبة النبى ــ صلى الله عليه وسلم – وفى رواية لمسلم أنه قال للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ (لَوْلاَ أَنْ تُعَيِّرَنِى قُرَيْشٌ يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ)[1].

لقد كان أبو طالب يعلم أن نطقه بكلمة التوحيد سيسعد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويريح فؤاده وتقرُّ به عينه، وتتحقق به أمنيته، ومع هذا مات على ما كان عليه، وكانت أمنية النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ محالة الحصول مع أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ صاغها

---

(١) صحيح مسلم: ك الإيمان، ب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع فى النزع، جـ١، صـ٦٢.

فى صورة الأمر الممكن الحصول الجائز الوقوع؛ رغبة فى حصولها وتطلعا إلى وقوعها، فلله الأمر من قبل ومن بعد، وهو – تعالى – القائل: (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[١].

التكرار والشوق إلى الرفيق الأعلى.

عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، أَنَّ أَبَا عَمْرٍو ذَكْوَانَ مَوْلَى عَائِشَةَ أَخْبَرَهُ: أَنَّ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – كَانَتْ تَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ – يَشُكُّ عُمَرُ – فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، وَيَقُولُ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ)، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: (فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى) حَتَّى قُبِضَ، وَمَالَتْ يَدُهُ[٢].

فالحديث الشريف يصور لنا معاناة النبى – صلى الله عليه وسلم – من سكرات الموت، يبدو هذا جليا فى مسح وجهه الشريف بالماء، ثم فى كلمة التوحيد التى نطق بها لسانه فى تلك اللحظات (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وهى من حسن الختام، ثم فى إخباره بشدة الموت (إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ)، وداعى التوكيد فى هذا الخبر ليس مرجعه حال المخاطبين، وإنما مرجعه يعود إلى رغبة النبى – صلى الله عليه وسلم – فى إبراز الخبر مؤكدا كما أحسه، وأمتلأت نفسه بأوجاعه وشدائده، وتقديم خبر "إن" على اسمها للاهتمام به تنويها بالموت، وتنبيها على شدائده.

أما قول عائشة – رضى الله عنها –: (ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: (فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى) حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ) فيشير إلى أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قد كرر هذا القول: (فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى) مرارا، بدليل المضارعة فى (يقول) وحرف الغاية (حتى)، وقد جاء ذكر التكرار صريحا فى روايات أخرى للحديث، فقد روى البخارى بسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ: دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا مُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِي وَمَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنُّ بِهِ فَأَبَدَّهُ[٣] رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) القصص: ٥٦.

(٢) صحيح البخارى: ك/ الرقاق، ب/ سكرات الموت، جـ٥، ص٢٣٨٧.

(٣) فأبده بصره بتشديد الدال: يعني أتبعه بصره ونظر إليه.

– بَصَرَهُ فَأَخَذْتُ السِّوَاكَ فَقَصَمْتُهُ وَنَفَضْتُهُ وَطَيَّبْتُهُ ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَاسْتَنَّ بِهِ فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ، فَمَا عَدَا أَنْ فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رَفَعَ يَدَهُ أَوْ إِصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ: فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ثَلَاثًا ثُمَّ قَضَى ....[١]، فهذه الرواية تثبت صراحة تكرار النبى –صلى الله عليه وسلم – لهذه المقولة: (فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى)، وأنه – صلى الله عليه وسلم – نصب يده قبل أن يقولها، وبعد أن انتهى من تكرارها قبض ومالت يده.

وتكرار هذه المقولة: (فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى) يشير إلى أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قد خُيّر قبل موته بين الدنيا ولقاء الله – تعالى – فاختار لقاء الله يؤكد هذا حديث رواه البخارى عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ إِنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُحَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ الْقَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى فَقُلْتُ إِذًا لَا يُجَاوِرُنَا فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ[٢].

والنبيون والصديقون والشهداء والصالحون هم الرفيق الأعلى الذين رغب النبى – صلى الله عليه وسلم – فى رفقتهم واشتاق إلى جوارهم[٣]، ومن هنا كرر عبارته: (فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى)؛ شوقا للقياهم وحبا لجوارهم وإيثارا لرفقتهم، وتأكيدا لزهده فى الدنيا، وإبرازا لاختيار الباقية على الفانية.

---

(١) صحيح البخارى: ك/ المغازى، ب/ مرض النبى – صلى الله عليه وسلم – ووفاته، جـ٤، ص١٦١٣.

(٢) صحيح البخارى: ك/ المغازى، ب/ مرض النبى – صلى الله عليه وسلم – ووفاته، جـ٤، ص١٦١٣.

(٣) أنست فى هذا التفسير بما جاء فى سورة النساء آية ٦٩من قوله تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا).

إن تكرار هذا القول: (فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى) من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يؤكد لنا مدى حبه وشوقه لأن يكون ضمن الرفيق الأعلى وبخاصة إذا علمنا أن المؤمن يرى عند موته مقعده من الجنة فيحب لقاء الله، ويشتاق لرفقة الصالحين، فكيف برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو خير المؤمنين، وسيد الأولين والآخرين، وقد قال له ربه – تعالى –: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)[١].

التكرار والشوق إلى توبة المذنبين.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: رَجُلٌ قَذَفَ امْرَأَتَهُ، فَقَالَ: فَرَّقَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – بَيْنَ أَخَوَيْ بَنِي الْعَجْلَانِ وَقَالَ: اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟ فَأَبَيَا، وَقَالَ: اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟ فَأَبَيَا، فَقَالَ: اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟ فَأَبَيَا، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا[٢]

فالحديث الشريف يعرض واقعة لعان تمت بين عويمر بن عمرو العجلانى وامرأته بنت عاصم بن عدى الأنصارى، أو بنت أخيه بعد أن رماها عويمر بالزنا مع شريك بن سحماء. فتلاعن الزوجان عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، ثم قال فى الخامسة: إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وشهدت المرأة أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ثم قالت فى الخامسة: إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين[٣].

والظاهرة الأسلوبية البارزة فى الحديث هى ظاهرة التكرار، فقد تكررت هذه الجملة: (اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟) ثلاث مرات، والغرض من هذا التكرار هو: استمالة المذنب وترغيبه فى إعلان التوبة والرجوع إلى الحق، والإقرار بالذنب؛ حتى ينجو من عذاب النار.

---

(١) الضحى: ٥.

(٢) صحيح البخارى: ك/ الطلاق، ب/ صداق الملاعنة، جـ٥، ص٢٠٣٥، صحيح مسلم: ك اللعان، جـ٢ صـ١١٣٢.

(٣) فتح البارى: ج٩، ص٤٤٧، وما بعدها، وهذه الواقعة غير واقعة هلال بن أمية مع امرأته وإن كان كلا الرجلين قد قذف امرأته بشريك بن سحماء.

وهذا التكرار مقتضى حال تطلبه الموقف واقتضاه، فالذنب عظيم، وعقابه الدنيوى شديد ــ لكنه أهون من العقاب الأخروى، وكلام الناس فى الكاذب وما يلحق الأهل من جراء ذلك عار مشين، وبخاصة أن الاعتراف والتوبة ستكون على رءوس الأشهاد، كل هذه الأمور عقبات تقف أمام كل من يريد الاعتراف، وصعوبات تحول بين الكاذب والتوبة، ولا يصلح لتبديد تلك العقبات وإزالة هذه الصعوبات، ومحو المسافات بين الكاذب والتوبة إلا التكرار، فهو أنجح الطرق فى هذا المقام؛ لما فيه من موالاة ومتابعة وإلحاح وتأكيد.

وإذا نظرنا إلى الكلام الذى كرره رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نجد أنه مؤلف من جملتين، الجملة الأولى: (اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ)، وهذه جملة خبرية تفيض بالترهيب بما فيها من تأكيد على أن كذب أحد المتلاعنين ثابت ومستقر فى علم الله ــ تبارك وتعالى ــ وأن عاقبة شهادة الكذب هى وجوب العذاب بحلول اللعنة على الرجل إن كان هو الكاذب، أو حلول الغضب على المرأة إذا كانت هى الكاذبة، وبما أن الله ــ تعالى ــ يعلم الكاذب فلا مجال إذن للكاذب فى أن يراوغ أو أن يتناسى ذنبه وكذبه، أو أن يُمنّى نفسه بالتوبة السرية بعد الشهادة العلنية الموجبة.

والجملة الثانية: قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟) وهذه الجملة إنشائية تفيض بالرغبة فى توبة الكاذب، وحضه على الرجوع إلى الحق، وتحريضه على الإقرار بذنبه، وشوق النبى – صلى الله عليه وسلم – وتطلعه لحدوث التوبة من المذنب؛ إذ لا مخرج ولا نجاة من عاقبة هذا الجرم إلا بإعلان التوبة والاعتراف الموجب لإقامة الحد الدنيوى.

ومن الملاحظ أن الجملة الثانية فى التكرار النبوى قد بنيت على الاستفهام: (فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟)، والاستفهام هنا يفيد: تمنى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتشوقه وتطلعه إلى توبة الكاذب ورجوعه إلى الحق، كما يفيد حض الكاذب على الاعتراف بذنبه، وتحريضه على التوبة والاستغفار، ويفيد – أيضاً – زجر الكاذب على تمسكه بكذبه، وتخويفه من عذاب الله؛ لأن أى عقاب دنيوى أهون من عذاب الله الأخروى، ومن هنا كرر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قوله: (اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟) ثلاث مرات؛ مبالغة فى الشوق والتمنى، وتأكيداً للحض والتحريض، وتشديداً فى الزجر والتخويف؛ لأن الكاذب قد تورط فى الذنب وتمادى حتى شهد ببراءة نفسه كاذباً، وكانت هناك تبعات لرجوعه واعترافه وليس أجدى فى هذا الموقف من أسلوب التكرار جذبا للمذنب إلى رحاب التوبة والاستغفار.

قلت: إن من معانى الاستفهام هنا: التمنى، وهو طلب حصول أمر محبوب لا يرجى حصوله؛ إما لكونه مستحيلا، أو لكونه بعيدا لا يطمع فى نيله[١]،وتوبة أحد المتلاعنين من الأمور التى يحبها النبى – صلى الله عليه وسلم – ويشتاق إليها فى هذا المقام؛ درءا للعذاب الأخروى بالعقاب الدنيوى، لكن تلك التوبة بعيدة الحصول بسبب ما يترتب عليها من فضيحة لصاحبها وأهله، ولذا فإن الدلالة على التمنى بطريق الاستفهام تبرز البعيد الحصول فى صورة المستفهم عنه الممكن الوقوع، وهذا ينبئ بكمال العناية به، وشدة الرغبة فى وقوعه....، ومع كل هذا فقد تمسك المذنب بشهادته؛ درءا لفضيحة الدنيا، وخشية من ألسنة الناس.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ : يَتَنَزَّلُ رَبُّنَا[٢] تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟[٣]

لقد تكررت فى الحديث الشريف الاستفهامات وتتابعت، واستخدمت فيها أداة الاستفهام (من) التى تعم جميع من يعقل، والغرض من التكرار فى هذا الحديث هو استمالة العباد وترغيبهم فى أن يرفعوا حاجاتهم لربهم، وأن يسألوه، ويستغفروه، أرأيت كيف يتقرب الله – تعالى – من عباده، ويتودد إليهم، ويشتاق لدعائهم كى يستجيب لهم؟ أرأيت كيف يشتاق لسؤالهم ليعطيهم؟ ويشتاق لاستغفارهم ليغفر لهم؟ إنها رحمة الله بعباده، وحبه لخلقه.

---

(١) ينظر: مختصر سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح جـ٢، صـ ٢٣٩(ضمن شروح التلخيص) ، طبعة دار السرور، بيروت، ومواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربى، جـ٢، صـ ٢٣٩، ومعجم البلاغة العربية، للدكتور/ بدوى طبانة، جـ ٢، صـ٨٥٧، منشورات جامعة طرابلس ١٣٩٧ه ١٩٧٧م، ودلالات التراكيب: للدكتور/ محمد أبو موسى صـ١٩٤، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، علم المعنى، للدكتور/ عبد العزيز عتيق، صـ١١٢.ط.دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م.

(٢) هذا النزول من المتشابه الذى يفوض علم حقيقته إلى الله ـ تعالى ـ أو المراد: : ينزل أمره ورحمته ولطفه ومغفرته، أو المراد: تنزل ملائكته بأمره، ينظر: مسلم بشرح النووى جـ٦ صـ٢٧٩، فتح البارى جـ١٣ صـ٤٠٥ـ ٤٠٨.

(٣) صحيح البخارى: ك الدعوات، ب الدعاء نصف الليل جـ٥ صـ٢٣٣٠. صحيح مسلم: ك صلاة المسافرين وقصرها، ب الترغيب فى الدعاء والذكر... جـ١ صـ٥٢٣.

والحديث يبرز مكانة الدعاء وشأنه العظيم عند الله – تعالى – ومن هنا حضّنا على الإكثار منه، والإلحاح فيه، والتقرب به، وذلك لأن الدعاء توجه إلى الله ــ تعالى ــ بقلب سليم، واستعانة به بإخلاص ويقين لكى يدفع المكروه ويمنح الخير، ويعين على نوائب الدهر، ولا شك أن الإنسان فى هذه الحالة يكون فى أسمى درجات الصفاء الروحى، والنقاء النفسى، مؤدياً لأشرف أنواع العبادة فى خضوع لله الواحد القهار.

وأفاد تكرار أداة الاستفهام (من) وتتابع الاستفهام فى الحديث الشريف كمال المبالغة والتأكيد لما يفيده الاستفهام من معنى الأمر والتشويق، والإلهاب، والحث على الدعاء، والسؤال والاستغفار، ويفيد أيضاً التحريض على فعل هذه الطاعة، والترغيب فيها، وأن أفضل أوقاتها الثلث الأخير من الليل "وهو وقت شريف خصه الله بالتنزيل فيه، فيتفضل على عباده باستجابة دعائهم وتلبية سؤالهم، وغفران ذنوبهم، وهو وقت غفلة وخلوة واستغراق فى النوم، واستلذاذ به، ومفارقة اللذة والدعة صعب، لاسيما أهل الرفاهية فى زمن البرد، وكذا أهل التعب ولاسيما فى قصر الليل، فمن آثر القيام لمناجاة ربه والتضرع إليه مع ذلك، دل على خلوص نيته وصحة رغبته فيما عند ربه"[١]

والاستفهام المفيد للأمر هنا أبلغ من الأمر المجرد؛ لما فيه من حث وتشويق، وإلهاب وتحميس، والوجه فى اختيار هذا الأسلوب هنا هو أن القيام فى الثلث الأخير من الليل مما يثقل على النفس؛ لأنه وقت غفلة وخلوة واستغراق فى النوم، واستلذاذ به، ومفارقة اللذة والدعة صعب، فاحتيج للحث على القيام فيه إلى المبالغة والتكرار؛ ليتم التأثير والامتثال.

وفى الإتيان بعد (مَنْ) بأفعال المضارعة (يَدْعُونِي ..... يَسْأَلُنِي .....يَسْتَغْفِرُنِي) إشارة إلى أن هذه الطاعة يجب أن تكون ديدن الإنسان لا تنفك عنه تتجدد تجدد الليل، كما يلحظ فى مضارعة الأفعال المنصوبة فى جواب الاستفهام (فَأَسْتَجِيبَ لَهُ... فَأُعْطِيَهُ... فَأَغْفِرَ لَهُ) أن عطاء الله لمن يدعوه ويسأله ويستغفره متجدد تبعاً لتجدد الدعاء والسؤال والاستغفار، وأن الله لا يَرُدّ يداً صفراً، ولا يمنع العطاء حتى يتوقف الدعاء، وقد أفاد تكرار الاستفهامات وتتابعها تقوية هذه المعانى وتأكيدها،...

---

(١) فتح البارى، جـ١١ صـ١٢٩.

المبحث الرابع

بلاغة التكرار فى مقام التبرؤ من التقصير فى التبليغ

يُعَدّ التكرار من أنجع الأساليب فى تأكيد تبرئة الرسل من تبعة التقصير فى التبليغ والإنذار، فمهمة الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – قائمة على تبليغ مراد الله – تعالى – لعباده، ومن هنا نراهم دائما يجتهدون فى تبليغ رسالة ربهم، ويسلكون كل الطرق؛ رغبة فى إيصال الدعوة التى كُلِّفُوا بها، وخشية من التقصير فى التبليغ والإنذار، ورسولنا – صلى الله عليه وسلم – لقى ما لقى من الصد والإيذاء فى سبيل تبليغ دعوة ربه للناس، فما وهنت قوته، وما ضعفت عزيمته، بل جد وجاهد، وصبر وصابر حتى جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، واكتمل الدين، وتمت نعمة الإسلام على العباد.

والرسول – صلى الله عليه وسلم – حريص على إبراء ساحته من التقصير فى تبليغ مراد الله لعباده؛ لأن الله – تعالى – خاطبه قائلا: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)[1]، ومن هذا المنطلق نرى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كثيرا ما يستنطق الناس ليشهدوا له بأنه قد بلغ رسالة ربه، أمرا، ونهيا، وتشريعا...؛ حرصا منه – صلى الله عليه وسلم – على إبراء ساحته من التقصير فى التبليغ والتحذير والإنذار، ومن أهم الأساليب التى أسعفت النبى – صلى الله عليه وسلم – فى التأكيد على براءته من التقصير فى التبليغ والزجر والإنذار أسلوب التكرار، وسنرى فى النماذج الآتية كيف أن النبى – صلى الله عليه وسلم – استخدم التكرار فى استنطاق المخاطبين ليشهدوا له بالبلاغ، وعدم التقصير فى إرشادهم ونصحهم وتوجيههم.

---

(١) المائدة: ٦٧.

التكرار وتبليغ حكم الله فى الدماء والأموال والأعراض.

عَنْ وَاقِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ سَمِعْتُ أَبِي قَالَ عَبْدُ اللهِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: أَلَا أَيُّ شَهْرٍ تَعْلَمُونَهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟ قَالُوا: أَلَا شَهْرُنَا هَذَا، قَالَ: أَلَا أَيُّ بَلَدٍ تَعْلَمُونَهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟ قَالُوا: أَلَا بَلَدُنَا هَذَا، قَالَ: أَلَا أَيُّ يَوْمٍ تَعْلَمُونَهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟ قَالُوا: أَلَا يَوْمُنَا هَذَا، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – قَدْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يُجِيبُونَهُ: أَلَا نَعَمْ، .... (١)

يبين النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هذا الحديث شدة حرمة دم المسلم وماله وعرضه، فلا يجوز الاعتداء على هذه الأمور إلا فى حد أو حق، ويبدو اهتمام النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ببيان حرمة دم المسلم وعرضه فى التوطئة لبيان تلك الحرمة، بهذه الاستفهامات: (أَلَا أَيُّ شَهْرٍ تَعْلَمُونَهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟.....، أَلَا أَيُّ بَلَدٍ تَعْلَمُونَهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟ .....، أَلَا أَيُّ يَوْمٍ تَعْلَمُونَهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟) التى تفيد: تقرير المخاطبين بما يتميز به هذا الشهر والبلد واليوم من عظيم الحرمة، والتشويق إلى ما يراد من ورائها.

المخاطبون مقرون ومعترفون بهذه الحرمة إلا أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبى إلا استنطاقهم بما استقر فى نفوسهم من إجلال وتعظيم لحرمة اليوم والشهر والبلد؛ ليرتب على إقرارهم حكم الشرع بأن حرمة دم المسلم وماله وعرضه أعظم من حرمة اليوم والشهر والبلد، فتكون حرمة دم المسلم وماله وعرضه بهذا الترتيب أشد وأقوى وألزم للمقرين حيث ألحقها النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بحرمة الشهر والبلد واليوم، وإن كانت حرمتها أشد وأقوى، "فمناط التشبيه فى قوله: (كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا.....): ظهوره عند السامعين؛ لأن تحريم البلد والشهر واليوم كان ثابتاً فى نفوسهم مُقرّرا عندهم بخلاف الأنفس والأموال والأعراض، فكانوا فى الجاهلية يستبيحونها، فطرأ الشرع عليهم بأن تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم، فلا يَرِد كون المشبه به أخفض رتبة من المشبه؛ لأن الخطاب إنما وقع بالنسبة لما اعتاده المخاطبون قبل تقرير الشرع" (٢).

---

(١) صحيح البخارى: ك الحدود، ب ظهر المؤمن حمى إلا فى حد أوحق، جـ٦ صـ٢٤٩٠، صحيح مسلم: ك القسامة، ب تغليظ الدماء والأعراض والأموال جـ٣ صـ١٣٠٥.

(٢) فتح البارى: ج١، ص١٥٩.

وقد كُرّر حرف الافتتاح (ألا) فى الاستفهامات؛ تنبيها للمخاطبين، وإيقاظا لمداركهم كى ينتبهوا لما يلقى إليهم، وكُرّر أيضاً حرف الافتتاح فى إجابات المخاطبين: (أَلَا شَهْرُنَا هَذَا ....، أَلَا بَلَدُنَا هَذَا.....، أَلَا يَوْمُنَا هَذَا....)؛ تأكيداً من المخاطبين على أنهم يقظون منتبهون مقرون بكل ما قُرّروا به، والغرض من إضافة الشهر والبلد واليوم إلى أنفسهم هو الإيجاز؛ لأن الإضافة أخصر طريق لاستحضار مكانة الشهر والبلد واليوم، هذا: فضلا عن أن الإضافة أغنت عن تفصيل يضيق المقام به – من بيان مكانة هذه الأشياء فى نفوسهم –؛ نظرا لترقبهم لما يلقيه النبى – صلى الله عليه وسلم – على أسماعهم من بيان وأحكام.

واسم الإشارة هنا أريد به: تمييز الشهر، والبلد، واليوم أكمل تمييز؛ لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالته يفيد تحديد المراد منه تحديدا ظاهرا، وتمييزه تمييزا تاما، والصحابة – رضوان الله عليهم يقصدون إلى هذا التحديد؛ ليبرزوا مدى انتباههم وتيقظهم، وقد أتوا باسم الإشارة الموضوع للقريب إشارة لقرب مكانة ذى الحجة ومكة ويوم النحر من قلوبهم، تعظيما وتشريفا وتحريما، وبعد هذه التوطئة المنبهة المشوقة يأتى البيان النبوى الشريف معلنا أن حرمة دم المسلم وعرضه وماله كحرمة ذى الحجة ومكة ويوم النحر ثبوتاً وإقراراً ووضوحاً وشيوعاً.

وبعد التأكيد على حرمة دم المسلم وماله وعرضه والتشديد عليها والتحذير من انتهاكها يأتى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ:(أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟) مكررا ثلاث مرات؛ لتأكيد البراءة من القصور، ولتقرير نزاهة الساحة من اللوم، وللتعريض بانتقال التبعة إلى أهلها وتحملهم حقوقها، مع الإشعار بعظم جانبها.

وتأمل هذا اللفظ النبوى الشريف: (بَلَّغْتُ؟) حيث جاء الفعل هنا متعديا، والفعل المتعدى له مفعول يقع عليه، ولا يحذف ذاك المفعول ويَرِد الفعل بدونه إلا لأغراض بلاغية وأسرار دقيقة يقتضيها المقام، وسر حذف المفعول هنا هو: إثبات المعنى الذى اشتق منه الفعل وهو (التبليغ) للفاعل وهو النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من غير نظر إلى مَن بلغهم أو إلى ما الذى بلغه، وكأن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول: ألا هل كان منى تبليغ، بمعنى: قد كان منى تبليغ، ولو أثبت المفعول فقال مثلا: ألا هل بلغتكم حرمة الدماء والأموال والأعراض، لانصرف الذهن إلى المُبَلَّغ لا إلى حقيقة التبليغ، ولذا فإنك عندما تريد بِطَىِّ المفعول هذا الغرض وهو (إثبات المعنى فى نفسه للفاعل) فإنك لا تنظر إلى المفعول المطوى، ولا تلتفت إليه، ولا تخطره ببالك، ولا تقدره؛ إذ المقدر كالمذكور.

وهكذا انسجم حذف المفعول مع مراد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ؛ لأنه فى قوله: (أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟) وتكراره لهذه العبارة كان يهدف إلى إثبات التبليغ لنفسه؛ إمعانا فى التبرؤ من التقصير فى التبليغ.....، يقول الشيخ عبد القاهر: "وهكذا كل موضع كان القصد فيه: أن يثبت المعنى فى نفسه فعلا للشىء، وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه، أو لا يكون إلا منه، فإن الفعل لا يُعدّى هناك؛ لأن تعديته تنقض الغرض، وتغير المعنى"(١).

ولا يبعد أن يكون الغرض من حذف المفعول: إرادة التعميم، وأن تبليغ النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليس مقصورا على ما ذكر من تحريم الدماء والأموال والأعراض دون غيرها بل تبليغه تعدى إلى كل ما أراده الله – عز وجل – من عباده، وأن التبليغ أيضا ليس مقصورا على المخاطبين دون غيرهم، بل تبليغه ــ صلى الله عليه وسلم ــ تعدى إلى كل من يتأتى إبلاغه، فحذف المفعول أفاد التعميم، ولو ذكر المفعول فقيل مثلا: ألا هل بلغتكم حرمة الدماء والأموال والأعراض، لفات معنى التعميم بما فيه من مبالغة مطلوبة.

والعبارة النبوية دون تكرار فيها جانب من التنبيه المؤكّد يبدو فى دخول حرف الافتتاح المنبه (ألا) على أداة الاستفهام (هل) الداخلة على الفعل الماضى؛ ولذلك لم يسع الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ إلا أن يقروا بحرف الجواب الإثباتى (نعم) مقدمين عليه حرف الافتتاح (ألا)؛ تنبيها على أنهم استوعبوا وفهموا ما ألقى إليهم ...، فإذا كان هذا قد تكرر فقيل ثلاثاً فإن مدى تقرره فى نفوس السامعين بعيد، إنه تبرئة من تبعة عظيمة، وحق أمانة كبيرة، وفى التكرار إشعار للأمة بأن كل من وصله الدين بالبلاغ مطالب بحدوده، وكل من جهد فى البلاغ والإنذار برئ من التبعة والعتاب.

التكرار والتبليغ بقرب حلول الفتن والتحذير منها.

عَنْ عُثْمَانُ الشَّحَّامُ قَالَ انْطَلَقْتُ: أَنَا وَفَرْقَدٌ السَّبَخِىُّ إِلَى مُسْلِمِ بْنِ أَبِى بَكْرَةَ وَهُوَ فِى أَرْضِهِ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَقُلْنَا: هَلْ سَمِعْتَ أَبَاكَ يُحَدِّثُ فِى الْفِتَنِ حَدِيثًا، قَالَ: نَعَمْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ يُحَدِّثُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم–: (إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ، أَلاَ ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِى فِيهَا، وَالْمَاشِى فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِى إِلَيْهَا، أَلاَ فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ

(١) دلائل الإعجاز: ص/١٧٧.

وَقَعَتْ فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ)، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلاَ غَنَمٌ وَلاَ أَرْضٌ؟ قَالَ: (يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ، ثُمَّ لْيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟)، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَّيْنِ أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ، أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟ قَالَ: (يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)[1].

يحذر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الفتنة، ويحث على اجتناب المشاركة فيها، والمراد بالفتنة ما ينشأ عن الاختلاف فى طلب الملك حيث يُشْكِل الأمر على عامة الناس فلا يُعْلم المُحق من المبطل، ويكون الناس بحسب اشتراكهم فى هذه الفتن، فأعلاهم فى ذلك الساعى فيها بحيث يكون سببا لإثارتها، ثم من يكون قائماً بأسبابها وهو الماشى، ثم من يكون مع النظارة وهو القاعد، والمراد بالأفضلية فى هذه الخيرية من يكون أقل شرا ممن فوقه على التفصيل المذكور.

وتأمل صياغة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لخبر الفتنة: (إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ) لقد جاء الخبر مؤكدا ليس مراعاة لحال المخاطبين؛ لأنهم لا ينكرون مضمون الخبر، ولا يشكون فى كينونته؛ لأنه صادر عن الصادق الأمين، وإنما التأكيد مرجعه إلى حال المُخْبِر، ورغبته فى تقوية مضمون الخبر، وتقريره فى نفوس المخاطبين، كى ينتبهوا ويتيقظوا، ويلتمسوا السبل التى تنأى بهم عن هول الفتنة، وقد بينها لهم ــ صلى الله عليه وسلم ــ

وتأمل الجمع والإفراد فى قوله: (إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ، أَلاَ ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ)، لقد جمع الفتن أولا، ثم أفردها ثانيا، والجمع يشير إلى ضعف الفتن، لأنها تبدأ متفرقة لا يُلْقَى لها بال؛ لضعف تأثيرها وتشتتها، لكنها لا تلبث – إن لم تعالج فى وقتها – أن تلتئم أجزاؤها وتتلاحم أفرادها لتصبح فتنة كبرى يستفحل خطرها، ويستشرى ضررها، وفى عطف المفرد على الجمع ب(ثم) التى تفيد تخلل الزمن بين المتعاطفين، إشارة إلى أن الفتن الصغيرة المتفرقة تنمو مع الزمن وتلتئم لتصبح فتنة عظيمة يُشَكّ فى النجاة من خطرها، والدليل على أن الفتنة بلفظ

---

(١) صحيح مسلم: ك/ الفتن وأشراط الساعة، ب نزول الفتن كمواقع القطر،جـ٤، صـ٢٢١٣.

الإفراد فى هذا المقام أعظم من الفتن المتفرقة، أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أتى بــأداة التنبيه (ألا) قبل الإخبار عن الفتنة، و(ألا) يُؤتى بها للتنبه إلى عظيم الأمر الذى يخبر به، ثــم إن الكلام بعدها مبنى عليها، والضمائر فى قوله: (الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِى فِيهَا، وَالْمَاشِى فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِى إِلَيْهَا) تعود كلها إلى الفتنة.

وبعد أن بين النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عِظَم خطر تلك الفتنة، وأن شرها يكــون على حسب التعلق بها، حث على تجنبها، والهرب منها، والتشبث بأى عمل يشغل عنها، فمــن لم يكن له عمل يشغله فليكسر سيفه ليسد على نفسه باب الفتنة[1]، ثم تأمل سُبل تجنب الفتنــة التى أرشد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إليها أصحابه: (أَلاَ فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ فَمَنْ كَــانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِــهِ)، لقد افتتح العبارة ب(ألا) لينبه المخاطبين إلى أن أعظم سبل النجاة من الفتنة، هــى أن ينــأى الإنسان بنفسه عن الفتنة، ويلحق بإبله، أو بغنمه راعيا، أو بأرضه زارعا.

ثم تأمل الأمر: (فَلْيَلْحَقْ) الذى تكرر ثلاث مرات؛ للتأكيد على ترك الفتنة وسلوك ســبل النجاة من خطرها، وقد جاء الأمر هنا فى صورة المضارع المقترن بلام الجزم، وقــد أوثــرت هذه الصيغة لدلالتها على التجدد والحدوث، ولا يراد بالأمر هنا الإلزام، ولكن يراد به النصــح والإرشاد، فمن أراد النجاة من الفتنة العظمى فما عليه إلا أن يستمر فى الابتعــاد عنهــا، وأن يَجِدّ ويُجدد البحث عن عمل يشغله عن الخوض فى مهلكاتها.

ومن لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض فليتخلص من سلاحه حتى لا يجد محفزا وداعيــا للاشتراك فى الفتنة، وتأمل قوله: (ثُمَّ لْيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ) أى: يحــاول النجــاة بنفســه، والأمر أريد به النصح والإرشاد، وفى التعبير بأداة الشرط (إن) دون (إذا) إشارة إلى أن النجاة مشكوك فيها، وفى هذا دلالة على أن هذه الفتنة تستفحل وتشتد حتى إن خطرهــا لا يقتصــر على المشاركين فيها وإنما تتجاوزهم إلى المعتزلين بل إلى الفارين طالبى النجاة.

إن الحديث يصور لنا مدى عظم هذه الفتنة وشدة خطرها، ومن هنا يتبــدى لنــا مــدى إشفاق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على أمته، ومدى حرصه على تحجيم الفــتن ووأدهــا

---

(١) ينظر: مسلم بشرح النووى جـ٨ صـ٢١٨، فتح البارى جـ٣ صـ٣٠ــ ٣١.

فى مهدها بتحذير الناس من الخوص فيها وتحبيبهم فى الانشغال عنها والتماس النجاة منها، وتحطيم كل ما يمكن أن يكون ذريعة للدخول فيها، وبذلك يكون النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد أدى ما عليه من التبليغ والإنذار والتحذير، ثم يأتى قوله : (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟) مكرراً ثلاث مرات؛ لتأكيد البراءة من القصور فى الإنذار والتحذير، ولتقرير نزاهة الساحة من اللوم والعتاب، وللتعريض بانتقال التبعة إلى من يخوض فى الفتن بعد هذا التحذير.

وحذف مفعول (بَلَّغْتُ) أريد به إثبات المعنى فى نفسه للفاعل، مع إفادته لمعنى التعميم، بمعنى: أن تبليغ النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليس مقصورا على ما ذكر من التحذير من الفتن دون غيرها، بل تبليغه تعدى إلى كل مراد الله – عز وجل – من عباده، وأن التبليغ أيضا ليس مقصورا على المخاطبين دون غيرهم، بل تبليغه ــ صلى الله عليه وسلم ــ تعدى إلى كل من يتأتى إبلاغه، فحذف المفعول أفاد التعميم، ولو ذكر المفعول فقيل مثلا: ألا هل بلغتكم بحلول الفتن وحذرتكم منها، لفات معنى التعميم بما فيه من مبالغة مطلوبة.

والعبارة النبوية (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟) دون تكرار فيها جانب من التوكيد هو: إشهاد الله – تعالى – أنه أدى ما أوجبه عليه من التبليغ والتحذير، ثم الإخبار بالتبليغ فى صورة الاستفهام التقريرى، فإذا كانت هذه العبارة قد تكررت ثلاث مرات فإن مدى تقررها فى نفوس السامعين بعيد، إنها تبرئة من تبعة شديدة، وإشعار للأمة بأن من وصله هذا التحذير فهو مطالب بالبعد عن الخوض فى الفتن، وأن النبى – صلى الله عليه وسلم – بهذا التبليغ والتحذير قد برئ من التقصير والتبعة والعتاب.

التكرار وتبليغ حكم الله فى هدايا العمال.

عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – رَجُلاً مِنَ الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ [1]عَلَى الصَّدَقَةِ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ

(١)"يقال له: ابن اللتيبة بضم اللام واسكان المثناه الفوقية بعدها موحدة فتحتية مشددة نسبة لبنى لتب بطن من الأسد، قال المصنف فى التهذيب: ويقال فيه: ابن اللتيبة بفتح الفوقية، وابن الأتيبة بالهمزة وإسكان التاء، وليسا بصحيحين، والصواب الأول، واسم هذا الرجل عبد الله كذا فى التهذيب" ابن علان: دليل الفالحين، جـ٢ صـ٥٢٥.

لِي، قَالَ: فَهَلاَّ جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ ، أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لاَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلاَّ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ ، ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ – اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ ثَلاَثًا.(١).

يبين النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هذا الحديث أن هدايا العمال حرام وغلول، وأن العامل الذى يقبل الهدية يكون قد خان فى ولايته وأمانته وأنه يحمل يوم القيامة ما يأخذ على رقبته؛ تشهيرا، وافتضاحا، وعقابا له، وقد بين النبى ــ صلى الله عليه سلم ــ السبب فى تحريم الهدية عليه، وأنها بسبب الولاية(٢)، فما يأخذه العمال تحت مسمى الهدية تكون له أثار سلبية؛ لما ينتج عنه من تضييع لحقوق الناس، وإهدار لمستحقاتهم، فالزكاة حق للفقير فى مال الغنى وإذا قبل عامل الزكاة هدية من صاحب المال فلا بد من مقابل، كالتغاضى عن بعض ما يجب دفعه من الزكاة، والتساهل فى جمعها، وفى هذا تضييع لحقوق الفقراء، وخيانة للأمانة، وإذا انتشرت هذه الخيانة بين العمال فى كل المجالات نتج عنها فساد كبير حيث تضيع الحقوق، وتعبث الشفاعات والهدايا بالمصالح المقررة، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء لتهملهم وتُقَدِّم مَنْ دُونهم؛ تبعاً لأهواء من يشترون ذمم الناس بما يدفعون، وتبعا لأهواء من يحتالون لقبول الرشوة المقنعة، فينجزون أعمالا، ويؤخرون أعمالاً، ويحكمون لغير أصحاب الحقوق، ويصانعون الناس.

ولعظم فساد هذا الأمر إذا استطال وانتشر أنكر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على عامل الزكاة ما ادعاه من أحقيته لما أُهْدِى له أثناء جمعه للزكاة فقال: (فَهَلاَّ جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لاَ؟)، وفى رواية لمسلم: (فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا)(٣)، إن الأمر جد خطير استلزم جمع الناس وصعود النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على المنبر محذرا من خطورة هدايا العمال، وما يترتب على انتشارها من فساد عريض، ولكن انظر إلى الأدب النبوى فى

(١) صحيح البخارى: ك الهبة، ب من لم يقبل الهدية لعلة جـ٢ صـ٩١٧.
(٢) مسلم بشرح النووى جـ٢ صـ٤٢٣.
(٣) صحيح مسلم: ك الإمارة، ب تحريم هدايا العمال، جـ٣ صـ١٤٦٣.

عدم التصريح باسم العامل: (مَا بَالُ عَامِلٍ..؟) دون تصريح باسمه؛ "لأن مراده التحذير من مثل ذلك سواء فيه العامل أولاً وغيره، وهذا من مزيد فضله وحسن خلقه"(١)، فتوجيه الخطاب فى الحالات الفردية للجماعة شيمة الأدب النبوى، "فما كان ليفضح أحدا أو يشنى عليه أمام الملأ، بل جاء التعبير الشامل ستراً، ثم إن هذا أنجع الطرق التربوية فى تقويم السلوك وإصلاح الفاسد"(٢).

وجاء تحذيره ــ صلى الله عليه وسلم ــ من العاقبة الأخروية لقبول العمال الهدية فى قوله: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلاَّ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ) مؤكدا بالقسم ثم بالقصر الذى طريقه النفى والاستثناء، ثم الإطناب فى قوله (عَلَى رَقَبَتِهِ) إذ الحمل غالباً ما يكون على الرأس أو الظهر وكلاهما متصل بالرقبة، ثم فى وصف البعير بكونه له رغاء، والبقرة بكونها لها خوار، والشاة بكونها تيعر، فهذه الخصوصيات الأسلوبية تأكيد لهذا العقاب الأخروى وتصوير لبشاعته وشدته، وتلك فضيحة مستحقة، وفى كل ذلك تحذير وتنفير من هدايا العمال؛ لما يترتب عليها من فساد دنيوى وعقاب أخروى، قال الشيخ أبو الحسن المباركفورى: "لما كان الرغاء والخوار من الأصوات التي يسمعها البعيد كما يسمعها القريب قال: (له رغاء، ولها خوار) ، فلما انتهى إلى الشاة جعل الصياح صفة لازمة لها ليدل على أنها لا تزال تيعر بين أهل الموقف ليكون ذلك أنكل في العقوبة، وأبلغ في الفضيحة"(٣).

وبعد إنكار النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يكون ما يُعطَى للعمال هدايا، وتحذيره من العاقبة الأخروية لهذا الفعل يأتى قوله: (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟) مكررا ثلاث مرات؛ لتأكيد البراءة من التقصير فى التبليغ والتحذير، ولتقرير نقاء الجانب من اللوم والعتاب، وللتعريض بانتقال تبعة المخالفة لفاعلها، وتحمله ما يترتب عليها من تبعات.

وتأمل حذف مفعول (بَلَّغْتُ) حيث أريد بحذفه إثبات المعنى فى نفسه للفاعل، مع إفادته لمعنى التعميم، بمعنى: أن تبليغ النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليس مقصورا على ما ذكر

---

(١) ابن علان: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين جـ١ صـ٥٢٦.
(٢) د/عز الدين على السيد: الحديث النبوى من الوجهة البلاغية صـ٢٠٢.
(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، جـ٦، ص٣٢.

من تحريم هدايا العمال دون غيرها، بل تبليغه تعدى إلى كل مراد الله – عز وجل – من عباده، وأن التبليغ أيضا ليس مقصورا على المخاطبين دون غيرهم، بل تبليغه ــ صلى الله عليه وسلم ــ تعدى إلى كل من يتأتى إبلاغه، فحذف المفعول أفاد التعميم، ولو ذكر المفعول فقيل مثلا: ألا هل بلغتكم حرمة هدايا العمال، لفات معنى التعميم بما فيه من مبالغة مطلوبة.

والعبارة النبوية دون تكرار فيها جانب من التأكيد يتمثل فى نداء النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ربه ــ تبارك وتعالى ــ قبل الإخبار بالتبليغ فى صورة الاستفهام التقريرى، فإذا كانت هذه العبارة قد تكررت ثلاث مرات فإن تقررها فى نفوس السامعين أرسخ وأمتن وآكد، يقول الشيخ أبو الحسن المباركفورى: "(اللهم هل بلغت) بالتشديد أي: قد بلغت، أو استفهام تقريري، والمراد بلغت حكم الله إليكم امتثالاً لقوله تعالى له: {بلغ}، وإشارة إلى ما يقع في القيامة من سؤال الأمم هل بلغهم أنبياؤهم ما أرسلوا به إليهم ....، وكرر هذا لتقرير وعظه على الناس ليكون أكثر وقعاً وتعظيماً وحفظاً في خواطرهم يعني: الله – تعالى – شاهدي على التبليغ؛ حتى لا ينكروا تبليغي يوم القيامة"(١)، فهل فى هذا التحذير ردع لكل من يقبل الهدايا رشوة وغلولاً؟؟ وهل فى تكرار تبرئته ــ صلى الله عليه وسلم ــ زجر لكل من يعبث بمصالح الناس؟؟

التكرار وتبليغ حكم الله فى ربا الجاهلية ودمائها.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: (أَلاَ إِنَّ كُلَّ رِبًا مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ، أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ مِنْ دَمِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُ مِنْهَا دَمُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)، كَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي لَيْثٍ، فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، قَالَ: (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ)، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) ثَلاَثَ مَرَّاتٍ(٢).

يبطل النبى – صلى الله عليه وسلم – فى هذا الحديث أفعال الجاهلية التى لا تتوافق مع روح الإسلام وأحكامه، ومن هذه الأفعال: المعاملات الربوية، ودماء الجاهلية، والجاهلية هي

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، جـ٦، ص٣٢.

(٢) سنن أبى داود: ك/ البيوع، ب فى وضع الربا، دار الكتاب العربى، بيروت، ج٣، ص٢٤٩، وسنن ابن ماجة، ك/ المناسك، ب/ الخطبة يوم النحر، ت/ محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفكر، بيروت، ج٢، ص١٠١٥.

ما كان قبل مجيء النبي – صلى الله عليه وسلم – وقبل أن يدخل الكفار الذين كانوا في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – في الإسلام.

أما ربا الجاهلية فحكمه الرد والإبطال، بمعنى: أن ما كان موجوداً في الجاهلية من معاملات ربوية وأمور محرمة، فما انتهى الأمر فيها قبل أن يدخلوا في الإسلام لا يبحث عنه، ولكن ما أدركه الإسلام فإنه يبطل، ويكون للإنسان رأس ماله دون أن يأخذ الربا المحرم، فالكافر إن أربى في كفره، ولم يقبض المال حتى أسلم فإنه يأخذ رأس ماله ويترك الربا، وإذا أربى في الجاهلية، وأخذ الربا قبل أن يسلم، فإنه لا يطلب منه أن يعيد الربا الذي أخذه في الجاهلية؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله، والتوبة تجب ما قبلها.

يقول النووى: "قوله صلى الله عليه و سلم في الربا (إِنَّ كُلَّ رِبًا مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ) معناه: الزائد على رأس المال كما قال الله – تعالى –: (وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ)[١]، وهذا الذي ذكرته إيضاح وإلا فالمقصود مفهوم من نفس لفظ الحديث؛ لأن الربا هو الزيادة، فإذا وضع الربا، فمعناه: وضع الزيادة، والمراد بالوضع: الرد والإبطال"[٢].

وإذا ما تأملنا قول النبى – صلى الله عليه وسلم –: (أَلاَ إِنَّ كُلَّ رِبًا مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ) نجد أنه قد بُدِئ بأداة التنبيه (ألا)، وهذه الأداة يُؤتى بها تنبيها للمخاطب من غفلته، وإيقاظا لمشاعره، وتهيئة لحواسه؛ لكى يصغى إلى ما يأتى بعدها من معان مهمة، ويلتفت إليها، فتثبت تلك المعانى لديه، وتقر بداخله، ويقوى حرصه على امتثالها وإجابتها..، يقول ابن علان: "(ألا) حرف استفتاح، وأتى بها ليتنبه المخاطب من غفلته فيتوجه لسماع ما يلقى إليه فيقر فى قلبه؛ ولذا إنما يؤتى بها فيما يهتم بأمره"[٣].

لقد افتتح – صلى الله عليه وسلم – كلامه بأداة الاستفتاح (ألا)؛ لينبه إلى عظم الأمر الذى سيخبر به، وهو إسقاط الربا ووضعه، وترك التعامل به، إنه لخبر عظيم ينبغى التنبيه

---

(١) البقرة: ٢٧٩.

(٢) مسلم بشرح النووى، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢هـ، ج٨، ص١٨٢.

(٣) دليل الفالحين: ج٢، ص١٨٠.

إليه؛ ليقر بالوجدان، وما ذاك إلا لأن الربا يفسد الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأفراد والجماعات، فبه يزداد الفقير فقرا، ويزداد الغنى غنى، وتتوطن الأثرة، والعداوة، والبخل، وهذا يتنافى مع روح الإنسانية ويتناقض مع سماحة الإسلام الذى يأمر بالزكاة فرضا فى مال الغنى تعطى للفقير، ويَعِد بالجزاء الحسن على القرض الحسن، ويحض على الإنفاق والصدقة، ويأمر بالعطف على الفقراء والمساكين، وذوى الحاجات.

وقد جاء إخبار النبى – صلى الله عليه وسلم – بإبطال الربا مؤكدا ب(إنَّ)، وداعى التوكيد هنا هو: رغبة النبى – صلى الله عليه وسلم – فى تقوية مضمون هذا الحكم، وتقريره فى نفوس المخاطبين، كى يتمكن فى قلوبهم، لأنه من الأمور المهمة التى تحتاج إلى هذا التمكين، وربما لمكانة الربا عند العرب وشيوعه فى اقتصادهم وأهميته لديهم أكد حرمته، واستخدام لفظ (كل) هنا يوحى بأن الربا أنواع، وأن كل أنواعه موضوعة، يستوى فى ذلك أن يكون هذا النوع موجودا فى عصر النبوة، أو حدث فى العصور التالية، إنه كله موضوع ومحرم، وهذا يقطع الطريق على كل من يفصل بين أنواع الربا فيحل بعضه ويحرم بعضه، أو يستحدث من الأسماء ما لم يكن موجودا من أنواع الربا، أو يبتكر طرائق وأنواعا جديدة لم تكن معروفة من قبل، إن لفظة (كل) تقطع الطريق على كل هذه المحاولات الخبيثة.

وإذا ما تأملنا العبارة النبوية: (أَلاَ إِنَّ كُلَّ رِبًا مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ) نجد أنها خبر أريد به الأمر، فالمقصود: ضعوا بمعنى: اتركوا ربا الجاهلية، والغرض البلاغى من وضع الخبر موضع الإنشاء هنا هو: حمل المخاطبين على تحقيق المطلوب، وتنفيذه، والتعبير بالخبر فى موضع الإنشاء هنا أبلغ فى الزجر عن الربا وآكد؛ لأنه يبرز المأمور به فى معرض الواقع المحقق؛ رغبة فى حدوثه، وحرصا على تحققه، وحثا على الامتثال وسرعة الإجابة.

وفى قوله – صلى الله عليه وسلم –: (لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ) محسن بديعى يسمى ب(الاقتباس)، حيث إن النبى – صلى الله عليه وسلم – ضمن كلامه هذا شيئا من القرآن الكريم، دون أن يشعر بذلك بأن يقول: (قال – تعالى –، أو قال الله، أو قال ربكم...)، وما من ريب فى أن الألفاظ المقتبسة من القرآن تزيد الكلام قوة وبلاغة، كما تضفى عليه حسنا وجمالا، إذ تبدو وسطه كالضياء اللامع، والنور المشرق، والنبى – صلى الله عليه وسلم – فى اقتباسه هذا بنى كلامه على الالتئام والتلاحم، وبهذا بدا كلامه قويا بليغا متلائما مع قوة النهى عن الربا، والأمر بتركه.

وجاء فى رواية لمسلم: (وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ)[١] وتخصيص ربا العباس – في هذه الرواية – بالذكر؛ لأنه رحم النبي – صلى الله عليه وسلم – وبدأ به؛ ليبين للناس أنه لا يستثنى من هذا الحكم أحدا ولا يحابى أحدا؛ لقرابته، ولا لنسبه، ولا لسلطانه، والبداية بإسقاط ربا عمه أدل على الصدق والإخلاص، فلا محاباة في الأحكام الشرعية ولا مراتب فالكل سواء، والناس في طبعها عندما ترى الحاكم يبدأ في تطبيق الأحكام على نفسه وأقاربه وخاصته تتشجع وتتمسك بالحكم ويزداد يقينها ويكون ذلك أدعى للامتثال والطاعة.

وقد يقال: لماذا قدم النبى – صلى الله عليه وسلم – فى هذا الحديث وضع الربا على وضع دماء الجاهلية التالى؟ والجواب: هو أن الربا أوسع مساحة، وأكثر شيوعا، وأعمق أثرا؛ لأنه كان يمثل بالنسبة إلى بعض العرب عصب اقتصادهم، ولم يكن أمر الدماء فى الجاهلية على هذه الدرجة، إنه كان أمرا محدودا بالنسبة إلى الربا، وحالاته قليلة، وإذا مس بعض الأسر والقبائل، فإن الكثيرين بنجوة منه، على عكس الربا الذى لم يكن هناك بيت تقريبا يخلو منه؛ لهذا قدم الربا هنا على دماء الجاهلية[٢].

وتأمل قوله – صلى الله عليه وسلم –: (أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ مِنْ دَمِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ) فالقتل الذي حصل بينهم في الجاهلية لا يطالبون به في الإسلام، فلو أن رجلاً قتل آخر في الجاهلية ثم أسلم فلا يقام عليه الحد في الإسلام، ولا قصاص عليه، فالإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بدأ النبى – صلى الله عليه وسلم – عبارته بأداة التنبيه (ألا)؛ لينبه المخاطبين إلى الخبر الواقع بعدها، وليمكن له فى قلوبهم؛ لأنه من الأحكام المهمة التى تتطلب ذلك التمكين، إنه إبطال لتبعات الدماء التى وقعت من المسلم قبل أن يسلم، وقد أكد هذا الخبر ب(إنَّ) وداعي التوكيد هنا هو: رغبة النبى – صلى الله عليه وسلم – فى تقوية مضمون هذا الحكم، وتقريره فى نفوس سامعيه، حتى يتمكن فى قلوبهم، لأنه من الأمور المهمة التى تحتاج إلى هذا التمكين،

---

(١) صحيح مسلم: ك/ الحج، ب/ حجة النبى – صلى الله عليه وسلم – ، ت/ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، جـ٢، ص٨٨٦.

(٢) ينظر: فى البيان النبوى، للدكتور/ أحمد محمد على (عبده زايد)، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، القاهرة، ١٤٠٤هـ، ص١٠٢.

والخبر كسابقه، أريد به: الأمر، أى: ضعوا، بمعنى: اتركوا دم الجاهلية، وقد جاء التعبير بالخبر فى موضع الإنشاء حاملا للمخاطبين على تحقيق المطلوب وتحصيله، وحاثًّا لهم على الامتثال وسرعة الإجابة.

وتأمل كيف أن النبى – صلى الله عليه وسلم – أول ما أبطل من الدماء أبطل (دَم الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)، هكذا روى أبو داود، وفى رواية مسلم: (وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِى بَنِى سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ)[١]، والحارث هو ابن عبد المطلب عم النبى – صلى الله عليه وسلم – والبداية بوضع دم ابن ربيعة، وإهداره، فيه إشارة إلى أن الإمام وغيره ممن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر ينبغى أن يبدأ بنفسه وأهله، فهو أقرب إلى قبول قوله، والى طيب نفس من قَرُب عهده بالإسلام[٢].

وبعد التأكيد على إبطال المعاملات الربوية، وإبطال تبعات دماء الجاهلية وتطبيق النبى – صلى الله عليه وسلم – هذا الحكم بداية على أهله وعشيرته، بإسقاط ربا عمه العباس، وإهدار دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب يأتى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ:(اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟) مكررا ثلاث مرات؛ لتأكيد براءته من القصور فى التبليغ، ولتقرير نزاهة ساحته من اللوم والعتاب، وللتعريض بانتقال التبعة إلى أهلها وتحملهم حقوقها، مع الإشعار بعظم جانبها.

والعبارة النبوية دون تكرار فيها جانب من اللفت والتنبيه يبدو هذا واضحا فى افتتاحها بنداء لفظ الجلالة (اللَّهُمَّ) – الذى حذفت منه أداة النداء وعوض عنها بالميم المشددة فى آخره – قبل الإخبار بالبلاغ فى صورة الاستفهام التقريرى ؛ وإنما أتى النبى – صلى الله عليه وسلم – بأداة الاستفهام (هل) بدلا من حرف التحقيق (قد) إمعانا فى التبرؤ من القصور فى التبليغ، واستنطاقا للسامعين كى يقروا له بالتبليغ، والخطاب وإن كان موجها لله – عز وجل – إلا أن السامعين هم المقصودون بالتقرير، ولذلك لم يسع الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ إلا أن ينطقوا بحرف الجواب الإثباتى (نعم)؛ إقرارا منهم بأن النبى – صلى الله عليه وسلم – قد بلغهم فلا لوم عليه، وأنهم قد استوعبوا وفهموا ما ألقى إليهم، فانتقلت المسئولية إليهم

---

(١) صحيح مسلم: ك/ الحج، ب/ حجة النبى – صلى الله عليه وسلم – ،جـ٢، ص٨٨٦.

(٢) معالم السنن للخطابى،جـ٣، ص٥٩، المطبعة العلمية، حلب، ط/ أولى ١٣٥١هـ –١٩٣٢م.

هذا: وقد تكررت هذه العبارة (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟) ثلاث مرات، وكان الغرض من وراء هذا التكرار هو المبالغة فى إبراز معنى التبليغ، وتقريره فى نفوس السامعين، تأكيدا لبراءته – صلى الله عليه وسلم – من تبعة مخالفتهم، وتأمل حذف مفعول (بَلَّغْتُ) حيث أريد بحذفه إثبات المعنى فى نفسه للفاعل، مع إفادته لمعنى التعميم.

لقد ألح النبى – صلى الله عليه وسلم – على هذه الجملة، وسلط الضوء عليها، واعتنى بها أكثر من اعتنائه بسواها، مما يكشف عن مدى اهتمامه بما تحققه من أغراض، والسر فى ذلك مرجعه إلى الباعث النفسى المتمثل فى حبه لإبلاغ رسالة ربه، واستنطاق القوم بأنه قد بلغهم، فتبرأ ساحته من اللوم والعتاب، إنها تبرئة من تبعة عظيمة، وحق أمانة كبيرة، وفى التكرار إشعار للأمة بأن كل من وصله الدين بالبلاغ مطالب بحدوده، وكل من جهد فى البلاغ والإنذار برئ من التبعة والعتاب.

وبعد أن طلب منهم النبى – صلى الله عليه وسلم – الإقرار بأنه ما قصر فى إبلاغهم، فأقروا بذلك جاء قوله – صلى الله عليه وسلم –: (اللَّهُمَّ اشْهَدْ)، وهذه الجملة مكونة من نداء وأمر، والنداء يشعر بأهمية ما ينادى لأجله، والأمر هنا بإشهاد الله – تعالى – على إقرار القوم بالتبليغ أريد به الدعاء، فهو طلب فيه تضرع وخضوع، وتكرار هذه العبارة ثلاث مرات يشير إلى رغبة النبى – صلى الله عليه وسلم – فى تأكيد براءته من التقصير فى إبلاغ الدعوة بالتأكيد على إشهاد الله – تعالى –، فشهادة الله – تعالى – له بالتبليغ هى أكبر دليل على براءته من التقصير فى التبليغ ... ، وكفى بالله شهيدا، ونحن نشهد سيدى يا رسول الله بأنك قد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، فجزاك الله عنا خير ما جازى نبيا عن أمته.

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من ختمت برسالته الرسالات، سيدنا محمد الهادى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فقد تناول البحث بلاغة التكرار فى البيان النبوى، وقد بدأ بمقدمة فيها أهمية الموضوع، والدافع إليه، ومنهج الدراسة، ثم التمهيد، وفيه مفهوم التكرار وقيمته البلاغية، ثم المبحث الأول، وفيه بلاغة التكرار فى مقام الدعاء والاستغفار، ثم المبحث الثانى، وفيه بلاغة التكرار فى مقام النهى والتحذير، ثم المبحث الثالث، وفيه بلاغة التكرار فى مقام الشوق والحنين، ثم المبحث الرابع، وفيه بلاغة التكرار فى مقام التبرؤ من التقصير فى التبليغ، وقد توصلت الدراسة بعد تلك الرحلة المباركة إلى عدة نتائج أهمها ما يأتى:

أولا: التكرار وسيلة بيانية لها مكانتها بين وسائل البيان ولها قيمتها البلاغية، وقد تنبه العلماء قديما وحديثا إلى دقته، ولطف مسلكه، فذكروا أنه من مقاتل علم البيان، وأنه فن دقيق المأخذ، وأنه من محاسن الفصاحة، وبينوا مدى الحاجة إليه فى الحال التى تقتضيه، والمقام الذى يستدعيه، وأنه إنما يُؤْتَى به فى الأمور المهمة؛ لتثبت وتتقرر.

ثانيا: التكرار ظاهرة بيانية كثيرة الورود فى البيان النبوى؛ لأن المواقف التى تستدعيه تمتلئ بها الحياة، والدواعى التى تدفع إليه قائمة فى فطرة النفس، فهو يأتى فى مقامات تقتضى زيادة تقرير المعانى، وتتطلب مزيدا من الحسم، وقطع الأطماع، وأكثره يأتى فى مواطن التهديد والوعيد، وهى مواطن يكون فيها التكرار بمثابة تتابع قرع الأجراس، وزيادة الضغط على مواطن الإحساس؛ للتنبيه على ما يحدق بالمخاطبين من أخطار.

ثالثا: تبين فى ضوء تحليل الأحاديث النبوية محل الدراسة أن التكرار فى بيانه – صلى الله عليه وسلم – مقتضى حال يتطلبه المقام، ومُتَطَلَّبًا من متطلبات النظم، بحيث يفسد المعنى بدونه، ولا يصلح فى موضعه غيره، فكل تكرار فى كلامه – صلى الله عليه وسلم – له دلالته التى تسهم فى إبراز الغرض، وتقرير المعنى وتأكيده، وما ذلك إلا لأن التكرار أسلوب توكيدى من أروع أساليب التأكيد بل هو أقوى أساليب الترسيخ والإقناع وأشدها إيحاء بالحسم والجد،

ومن هنا فإن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان يخص بالتكرار ما أهم واشتدت به العناية.

رابعا: تبيّن فى ضوء الدراسة أن معالجة الأساليب البلاغية فى إطار مقاماتها هو أفضل الطرق التى تثمر فى الدرس البلاغى، وتبرز بلاغة الأساليب وسماتها؛ ذلك لأن البلاغة: هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، وهذا لا يبدو واضحا إلا بدراسة الأسلوب البلاغى فى إطار مقامه، ومدى ملاءمته له، مع عدم إغفال الغرض، ذلك لأن الأساليب البلاغية جميعها تتآزر لخدمة المقام والوفاء بالمعنى المراد، وهو لب قضية النظم التى أفاض فى بيانها الإمام عبد القاهر الجرجانى – رحمه الله – .

خامسا: لاحظت الدراسة أن الغالب على (التكرار) الوارد فى بيانه – صلى الله عليه وسلم – هو التكرار ثلاث مرات سواء أكانت وحدة التكرار لفظة مفردة، أم جملة، أم أكثر من جملة، وهذا أدعى إلى تأكيد المعنى وتقريره، وبيان أهميته وخطورته.

سادسا: التكرار لا غنى عنه للداعية الناجح يواجه به النفوس الشاردة؛ ردعا لها وزجرا عن الوقوع فى الخطأ، وهو يفعل فى النفوس أفاعيل عجيبة، يحركها، ويدفعها، ويخفف عنها، ويبشرها، ويستميلها، ويستعطفها إلى ما يريد.

سابعا: لاحظت الدراسة أن التكرار كانت تصاحبه بعض الظواهر الحركية التى تسهم فى تقوية المعنى المراد وتؤكد على شدة حرمته، كما جاء عند تحذيره – صلى الله عليه وسلم – من أكبر الكبائر، فقد ذكر الإشراك بالله – تعالى – وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس، وعندئذ قال مكررا: (ألا وقول الزور)، فجلوسه – صلى الله عليه وسلم – وقد كان متكئا، فيه زيادة تنبيه وتشويق للمخاطبين، وهذا يدل على عظم قول الزور، وشدة خطره...، إلى غير ذلك مما ورد فى البحث.

وأخيرا فلا أزعم أننى أحطت علما بأسرار التكرار فى البيان النبوى، فذلك ما لا سبيل إليه، ولكن حسبى أنى قد بذلت من الجهد فى هذا السبيل قدر طاقتى، والله أسأل أن يقيل عثراتى، وأن يغفر زلاتى، والله من وراء القصد هو حسبنا ونعم الوكيل، والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور
إبراهيم حسن أحمد
الأستاذ المساعد فى جامعة الأزهر

أهم المصادر والمراجع

١- الإتقان فى علوم القرآن، لجلال الدين السيوطى، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

٢- إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى، لأبى العباس شهاب الدين القسطلانى، الطبعة الأخيرة، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٣٢٣ه

٣- أساس البلاغة لمحمود بن عمر الزمخشرى، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م.

٤- الأشباه والنظائر فى النحو، لجلال الدين السيوطى، ت/ طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٥ه ١٩٧٥م.

٥- الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية، للدكتور/ محمود شاكر القطان، الطبعة الأولى، مكتبة التراث بالمدينة المنورة، ١٩٨٦م.

٦- الأطول، لعصام الدين شيخ زادة، طبعة اسطنبول، بدون تاريخ.

٧- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعى، الطبعة الثامنة، دار الفكر، القاهرة.

٨- الأعلام، لزين الدين محمود بن محمد الزركلى، الدمشقى، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٢م.

٩- أمالى السهيلى، ت/ محمد إبراهيم البنا، مكتبة عمار، القاهرة، ١٣٩٠ه.

١٠-الأمالى لابن الشجرى، ت/ محمود محمد الطناحى، ط/ أولى، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٤١٣ه.

١١-أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضى البيضاوى، بهامش حاشية الشهاب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

١٢-الإيضاح شرح تلخيص المفتاح، للخطيب القزوينى، بتعليق/ عبد المتعال الصعيدى، الطبعة الخامسة، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٣-البحر المحيط، لأبى حيان الأندلسى، الطبعة الثانية، دار الفكر، لبنان، ١٤٠٣هـ.

١٤-البرهان فى علوم القرآن لبدر الدين الزركشى، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت.

١٥-بلاغة الرسول، للدكتور/ على محمد حسن العمارى، دار الأنصار، القاهرة.

١٦-البلاغة العالية، للشيخ عبد المتعال الصعيدى، مراجعة الدكتور/ عبد القادر حسين، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩١م.

١٧-البلاغة فى القراءات الشاذة عند ابن جنى، للدكتور/ عبد المنعم الأشقر،، ط/ أولى، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٤١٠ه ١٩٩٠م.

١٨-بيان إعجاز القرآن، للخطابى (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن)، ت/ زغلول سلام، وخلف الله، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٦ه ١٩٦٧م.

١٩-بيان مشكل الآثار، لأبى جعفر الطحاوى، ت/ شعيب الأرنؤوط

٢٠-البيان والتبيين، للجاحظ، ت/ الأستاذ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، ط/ الخامسة، القاهرة،١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٢١-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، ت/ عمر عبد السلام تدمرى، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربى، بيروت،١٤٠٧ه ١٩٨٧م.

٢٢-تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ت/ السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، دار التراث، القاهرة، ١٤٠٨ه١٩٧٣م.

٢٣-التبصرة والتذكرة، لأبى محمد الصيمرى، ت/ فتحى أحمد مصطفى، الطبعة الأولى، مركز البحث العلمى وإحياء التراث، جامعة أم القرى، ١٤٠٢ه ١٩٨٢م.

٢٤-تحرير التحبير: لابن أبى الإصبع المصري، تحقيق د/ حفنى شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة.

٢٥-التحرير والتنوير، لسماحة الشيخ/ الطاهر بن عاشور، الدار التونيسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٢٦-تحفة الأحوزى بشرح جامع الترمذى، لمحمد بن عبد الرحمن المباركفورى.

٢٧-تحفة الأشراف فى غوامض الكشاف، ليحيى بن قاسم العلوى، تحقيق الجزء الأول، د/ إبراهيم التلب، مخطوط بمكتبة كلية اللغة العربية، بالقاهرة.

٢٨-تذكرة الحفاظ لشمس الدين الذهبى، ط/ دار الفكر العربى، بدون تاريخ.

٢٩-تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لابن مالك، ت/ محمد كامل بركات، نشر دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.

٣٠-التشويق فى الحديث النبوى، للدكتور/ بسيونى عبد الفتاح فيود، ط/ أولى، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ١٤١٤ه ١٩٩٣م.

٣١-التفسير البيانى، للدكتورة/ عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة.

٣٢-التفسير الكبير، لفخر الدين الرازى، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ه ١٩٨٥م.

٣٣-التكرار بلاغة، للدكتور/ إبراهيم الخولى، إصدار الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٣م.

٣٤-تهذيب الأسماء للنووى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٥-الجنى الدانى فى حروف المعانى، للحسن بن القاسم المرادى، تحقيق فخر الدين قباوة، والأستاذ/ محمد نديم فاضل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ه ١٩٩٢م.

٣٦-حاشية الدسوقى على شرح السعد، (ضمن شروح التلخيص)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٧-حاشية السيد على المطول ــ السيد الشريف الجرجانى، مطبعة أحمد كامل، القاهرة، ١٣٣٠هـ

٣٨-حاشية السيوطى على سنن النسائى، الطبعة الثانية، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦ه ١٩٨٦م.

٣٩-حاشية الشهاب الخفاجى، المسماة: عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى للشهاب الخفاجى، بيروت، دار صادر.

٤٠-الحديث النبوى مصطلحه وبلاغته، للدكتور/ محمد الصباغ، الطبعة الرابعة، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٤٠٢ه ١٩٨٢م.

٤١-الحديث النبوى من الوجهة البلاغية، للدكتور عز الدين على السيد، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، القاهرة،١٣٩٢ه ١٩٧٣م.

٤٢-الخصائص، لابن جنى، ت/ محمد على النجار، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.

٤٣-دلائل الإعجاز: للشيخ/ عبد القاهر الجرجانى، تحقيق الشيخ/ محمود شاكر، مطبعة الخانجى، القاهرة.

٤٤-دلالات التراكيب، للدكتور/ محمد أبو موسى، الطبعة الثانية، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٤٥-دليل الفالحين بطرق رياض الصالحين، لمحمد بن علان، ط/ أولى، دار الريان ، القاهرة، ١٤٠٧- ١٩٨٧م.

٤٦-رصف المبانى فى شرح حروف المعانى، للإمام أحمد بن عبد النور المالقى، ت/ أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

٤٧-روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسى ، ت/ على عبد البارى عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ه.

٤٨-سنن الترمذى، لمحمد بن عيسى الترمذى، ت/ الشيخ أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

٤٩-سنن أبى داود، دار الكتاب العربى، بيروت.

٥٠-سنن ابن ماجة،ت/ محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفكر، بيروت.

٥١-سنن النسائى، لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائى، ت/ عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثانية، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦ه ١٩٨٦م.

٥٢-السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون، لعلى برهان الدين الحلبى، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠ه.

٥٣-السيرة النبوية لابن كثير، ت/ مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٦ه ١٩٧١م.

٥٤-السيرة النبوية لابن هشام، ت/ طه عبد الرءوف، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ.

٥٥-شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، لعبد الحى بن أحمد الحنبلى، ت/ عبد القادر الأرنؤوط، ومحمد الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق.

٥٦-شرح الزرقانى على الموطأ، لمحمد بن عبد الباقى الزرقانى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ.

٥٧-شرح السنة، للإمام البغوى، ت/ شعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٥٨-شرح صحيح البخارى، لابن بطال، مكتبة الرشد، جدة.

٥٩-شرح عقود الجمان، للسيوطى، الطبعة الثانية، مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

٦٠-شرح الكافية للإمام رضى الدين محمد بن الحسن، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦١-شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، لابن مالك، عالم الكتب، بيروت.

٦٢-الصحاح، للجوهرى، ت/ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، لبنان، ١٣٩٩-١٩٧٩م.

٦٣-صحيح البخارى، ت مصطفى ديب البغا، ط٤، دار ابن كثير، دمشق، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م

٦٤-صحيح مسلم: ت محمد فؤاد عبد الباقى، القاهرة، دار الحديث، ط أولى، ١٤١٢هـ ١٩٩١م

٦٥-الصناعتين، لأبى هلال العسكرى، ت/ على البجاوى، وأبى الفضل إبراهيم، ط/ عيسى الحلبى، القاهرة، ١٩٧١م.

٦٦-الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيي بن حمزة العلوي، ت/ عبد الحميد هنداوى، ط/ أولى، المكتبة العصرية ــ بيروت، سنة النشر : ٢٠٠٢م.

٦٧-عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك، للشيخ/ محمد محى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.

٦٨-عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكى (ضمن شروح التلخيص)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٦٩-علم البيان، للدكتور/ بسيونى عبد الفتاح فيود، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م، بدون ناشر.

٧٠-علم المعانى، للدكتور/ بسيونى عبد الفتاح فيود، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م، بدون ناشر.

٧١-علم المعانى، للدكتور/ عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٧٢-عمدة القارى لبدر الدين العينى، القاهرة، ط مصطفى الحلبى،ط أولى، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

٧٣-العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده: لابن رشيق القيروانى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، بيروت، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٧٤-فتح البارى بشرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى، دار المعرفة، بيروت.

٧٥-فتح البارى بشرح صحيح البخارى، لابن رجب، ت/ أبو معاذ طارق بن عوض الله، الطبعة الثانية، دار بن الجوزى، السعودية، ١٤٢٢.

٧٦-الفروق اللغوية، لأبى هلال العسكرى، ت/ أبو عمرو عماد زكى، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

٧٧-فى البيان النبوى، للدكتور/ أحمد محمد على (عبده زايد)، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، القاهرة، ١٤٠٤ه.

٧٨-القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروزابادى، دار العلم للجميع، بيروت بدون تاريخ.

٧٩-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، لجار الله محمود بن عمر الزمخشرى، ط/ مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٩٢ه ١٩٧٢م.

٨٠-كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزى، ت/ على حسن البواب، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨ه ١٩٩٧م.

٨١-لسان العرب: لابن منظور، تحقيق/ الأساتذة: عبد الله على الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلى ، دار المعارف، القاهرة.

٨٢-لطائف الإشارات، لعبد الكريم بن هوازن القشيرى، ت/ إبراهيم بسيونى، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨٣-اللمع فى العربية، لأبى الفتح عثمان ابن جنى، ت/ حامد المؤمن، الطبعة القانية، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥ه ١٩٨٥م.

٨٤-ليس من الإسلام، للشيخ/ محمد الغزالى، الطبعة السادسة، المكتبة العلمية، بيروت، ١٤١١ه ١٩٩١م.

٨٥-المثل السائر، لابن الأثير، ت د /أحمد الحوفى ود /بدوى طبانة، نهضة مصر، القاهرة.

٨٦-مجمع الأمثال للميدانى، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ ه ١٩٨٧م.

٨٧-مختصر العلامه سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى، (ضمن شروح التلخيص) دار الكتب العلمية بيروت، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، القاهرة، ١٣١٨هـ .

٨٨-مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لأبى الحسن عبيد الله بن محمد المباركفورى، الطبعة الثالثة، نشر إدارة البحوث العلمية والدعوة، الجامعة السلفية، الهند، ١٤٠٤ه ١٩٨٤م.

٨٩-المزهر فى علوم اللغة للسيوطى، ت/ محمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦م.

٩٠-المطول فى شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازانى، مطبعة أحمد كامل، تركيا، ١٣٣٠ه.

٩١-معالم السنن للخطابى، ط/ أولى، المطبعة العلمية، حلب، ١٣٥١ه ١٩٣٢م.

٩٢-معانى الحروف لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى، ت/ عبد الفتاح إسماعيل شلبى، نهضة مصر القاهرة.

٩٣-معجم البلاغة العربية، للدكتور/ بدوى طبانة، منشورات جامعة طرابلس، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.

٩٤-المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة.

٩٥-مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، ت محمد محى الدين عبد الحميد، ط محمد على صبيح، القاهرة.

٩٦-المغنى، للقاضى عبد الجبار، ت/ الشيخ أمين الخولى، ط/ وزارة الثقافة والإرشاد القومى، نشر دار الكتب، القاهرة، ١٣٨٠- ١٩٦٠م.

٩٧-المفردات فى غريب القرآن، لابى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، ت محمد سيد كيلانى، الطبعة الأخيرة، مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٨١هـ ١٩٦١م

٩٨-المقتضب، لأبى العباس المبرد، ت/ محمد عبد الخالق عضيمة، الطبعة الثانية، وزارة الأوقاف المصرية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامى، ١٣٩٩ه ١٩٧٩م.

٩٩-مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث، للدكتور/ إبراهيم الخولى، الطبعة الأولى، دار البصائر، القاهرة، ١٤٢٨ه ٢٠٠٧م.

١٠٠- من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم، للدكتور/ محمد الأمين الخضرى، ط/ أولى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٤ه ١٩٩٣م.

١٠١- من بلاغة النظم العربى، دراسة تحليلية لمسائل علم المعانى، للدكتور/ عبد العزيز عبد المعطى عرفة، الطبعة الثانية، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥ه ١٩٨٤م.

١٠٢- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لمحى الدين النووى، ت الشيخ مأمون سيحا، ط أولى، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

١٠٣- مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى (ضمن شروح التلخيص)، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٤- نتائج الفكر فى النحو، لأبى القاسم عبد الرحمن بن محمد السهيلى، ت/ محمد البنا، دار الرياض للنشر والتوزيع.

١٠٥- النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى، ط/ وزارة الثقافة والإرشاد القومى، بدون تاريخ.

١٠٦- النكت فى إعجاز القرآن، للرمانى (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن)، ت/ زغلول سلام، وخلف الله، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٦ه ١٩٦٧م.

١٠٧- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، للإمام فخر الدين الرازى، ت.د/ أحمد حجازى السقا، الطبعة الأولى، المكتب الثقافى للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م.

١٠٨- النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ت/ طاهر أحمد الزاوى، ط/ أولى، عيسى الحلبى، القاهرة،١٣٨٣ه ١٩٦٣م.

١٠٩- وحى الرسالة، للأستاذ/ أحمد حسن الزيات، الطبعة العاشرة، ١٤٠٥ه ١٩٨٤م.

١١٠- وحى القلم، لمصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربى، بيروت.

١١١- وفيات الأعيان: لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت.